صـــور

ما أكتبه الآن ليس قصة . إنها حكاية حدثت فعلاً وما زال بعض شهودها على قيد الحياة .. الجزء المفقود هم الأبطال. لذا نستطيع أن نطلق عليها حكاية، لأن من عاش الجزء المهم منها / جوهرها لم يعد موجوداً، وعدم وجوده هو ما أعطى الحكاية معناها وأسمها.

أما لماذا أكتبها اليوم، فهذه حكاية أخرى، لا يمكن أن تأخذ شكل الحكاية إلا بعد أن أنتهي منها .. أي أن ينتهي دوري فيها.

صحيح أني لم أشهد معظم أجزاء الحكاية، غير أني بطلة بطريقة ما، عاشت حكاية قص الحكاية.

أشعر بأنني عشت الحكاية منذ شهدت جزءاً منها. إنها تعيش داخلي وأصبحت تطبق على روحي. طوال السنوات الماضية وحتى هذه اللحظة، باءت كل محاولاتي للتخلص منها بالفشل. كانت تلك المحاولات تورطني فيها أكثر.

وخشية أن تتحول إلى قصة من قصصي، آثرت أن أسردها وأتخلص منها.

حاولت أن أحكيها أكثر من مرة، لكن تهمة كوني احترف كتابة القصة كانت تطاردني مع كل رغبة أو محاولة للحكي.

لم أكن أريد التأثير بالمتلقي أو نشدان التعاطف .. إثارة الدهشة. كنت فقط أحاول التخلص منها. لكني أيضاً لم امتلك شجاعة اختيار المستمع الذي طالما رغبت في أن يأخذ حكايتي على محمل الجد ويتقبل موضوعيتي وأنا أحاول سردها.

أتراني سأنجح وأنا أكتبها الآن مستعيرة رموزاً للتعبير عن حقائق ووقائع وحيوات؟

فكل ذلك الآن ليس إلا كلمات مكتوبة .. أي ليس الحقائق والوقائع والحيوات..

هل بمقدور الرموز أن تحقق ذلك؟

مازلت عاجزة. لكني سأحاول أن أكتب حكايتي كما شهدتها من دون أي رتوش أو اعتبار لتيارات كتابة القصة وليغضب النقاد.

ما أريده هو التخلص من هذه الحكاية .. خلعها كما نخلع ضرس اعتدنا نوبات الألم التي تسببها لنا ومراجعة العطارين والصيادلة.

لم أعد احتمل المزيد من المسكنات . سأخلع الضرس ,. أقصد سأروي الحكاية ولن استشير طبيباً أو ناقداً.

بطل الحكاية الأول (والبطل هو من عاش الحكاية وما نقوم به نحن هو سرد ما ظهر لنا كشهود لها) هو جدي وكان - وفق شهادة جدتي وأمي وأبي - شخصية مرحة تعشق الحياة.

استطيع أن أصفه عبر صورة فوتوغرافية ما زالت تتصدر غرفة الضيوف في بيتنا: شخص طويل - قمحي البشرة - ملامحه يلفها الغموض والاعتداد بالنفس.

في الصورة يظهر واقفاً بحزم، ينظر إلى نقطة ما (حددهاله المصور) وكأنه يتجاوز تلك النقطة بتصميم وتمرد.

كثيراً ما أثارتني هذه الصورة وتساءلت عن الشيء الذي ينظر إليه جدي.

كانت جدتي عندما تراني أحدق بالصورة، تتأوه وتسرد لي حكاية هذه الصورة.

تقول جدتي إن جدي طلب من المصور أن يلتقط له صورة تبرز فيها هيئته كاملة. وعندما ذهب بعد يومين لتسلم الصورة، وجدها لا تظهر سوى نصفه العلوي . وبالتالي لم يظهر الحزام وزيه العراقي كاملاً. أي (الصاية) التي ترتدى فوق القميص والسروال والحذاء الجلدي الملمع.

فاضطر المصور تحت وطأة غضب جدي أن يلتقط له صورة من رأسه إلى قدميه..

وهكذا ظهر جدي في الصورة غاضباً هو الشخص المرح. ومع غضبه برز العقال واليشماغ والصاية والحذاء .. وتلك النظرة التي ربما أرعبت المصور!!

تقول جدتي إن جدي لم يكن يشكو من شيء . يصحو مبكراً ويوقظ جميع أفراد العائلة. كان يستمتع بشيخوخته بين أولاده وأحفاده .. يذهب للمقهى ويعود قبل أذان الظهر ليجد طعامه جاهزاً.

بعد الغداء يأخذ قيلولته وفي المساء يستقبل الأصدقاء أو يزورهم في بيوتهم. كان مرحاً وهادئاً وفجأة حدث ما حدث.

- **ما الذي حدث يا جدتي؟**
- **خرج إلى المقهى كعادته ولم يعد في وقته المعتاد . كذلك لم يعد في المساء.**

أعلمتني جدتي أن العائلة بحثت عنه وسألت في كل مكان، قال بعضهم أنه جاء إلى المقهى، لكنه غادره مبكراً ولم يره أحد بعد ذلك.

استمر الجميع بالبحث عنه في كل مكان ممكن أن يكون قد توجه إليه، عند أفراد العائلة القريبين والبعيدين .. داخل المدينة وخارجها .. في المستشفيات..في أقسام الشرطة.

بعد بضعة أشهر كف الجميع عن البحث واستسلموا للحظة قد يأتي فيها بكل مرحه عائداً من المقهى متسائلاً "هل الغداء جاهز".

مع كل ظهيرة تتلهف القلوب لتلك اللحظة، لكنه لم يعد ولم تستسلم القلوب .. لم تتوقف جدتي عن تسقط أخباره أو اللجوء إلى العرافات وقارئي الطالع.

في أحد الأيام .. وقبل أذان الظهر عاد جدي. لكنه لم يعد بإرادته أو على قدميه. كان ثمة جلبة في باب الدار وشخص يحاول فتح الباب على مصراعيه .. الباب الذي كان مفتوحاً على الدوام تحجب ما خلفه ستارة من القماش الملون.

كان ذلك الشخص أحد أقارب جدي البعيدين .. فتح ضلفتي الباب بينما وقف خلفه رجال يحملون تابوتاً . وكان جدي يدخل بيته لأول مرة محمولاً .. بلا مزاح وبدون عبارته المعهودة "هل الغداء جاهز".

لم يصدق أحد أن الذي في الصندوق الخشبي هو جدي وأن خطأ لا بد وقد حدث.

لم تبك جدتي ولم تصرخ، كانت طوال الوقت تقول "إنه ليس هو" ولم تكف عن الكلام حتى رأته نائماً ببسمته في التابوت.

قال القريب أنه كان بالمصادفة في زيارة لصديق له في إحدى المناطق الشعبية وفي بيت ذلك الصديق سمع أن خادم الجامع في منطقتهم قد فارق الحياة. وأنه في طريقه لأداء صلاة الميت على روحه.

يقول القريب أنه رافق الصديق إلى الجامع وهناك عرف أن لا أحد يعرف عائلة لهذا الشيخ التقي.

"لا أدري لم – يقول القريب - كشفت وجهه فكان هو".

هكذا عاد جدي إلى بيته دون ضحكة أو مزحة .. ولم يتبق من جدي سوى تلك النظرة الغاضبة في صورة فوتوغرافية معلقة على الجدار.

رفعت الستارة وانغلق باب الدار.

بعد ثماني سنوات من ذلك اليوم، خرج عمي الصغير ولم يعد. عمي الذي لم أتعرف على ملامحه ولا يمكن أن أملك ذكريات عنه (حسب تأكيدات أمي) عندما تستمع إليّ وأنا أحدثها عن ذكرى أحملها عن ذلك العم .. ذكرى وحيدة، بعيدة غائمة.

كنت فيها عند باب الدار عندما وصل .. ركضت إليه فاحتضنني وأعطاني كيساً ورقياً ينضح بعسل التوت. ما زلت أتذكر طعم التوت الحلو وحرارة جسد عمي ورائحة عرقه في ذلك اليوم الصيفي اللاهب .. ملامحه مضببة في ذاكرتي.

عندما أحدث أمي بذكراي الوحيدة، تبتسم وتجيب بحسم "لا يمكن أن تتذكرينه. كنت في الثانية عندما مات".

أمام حجج أمي، ترتبك الذكرى .. تتراجع ولا يتبق منها سوى صورة فوتوغرافية لشاب في السابعة عشرة من عمره، وسيم أكثر مما ينبغي لكي يطاله الموت. خلف الصورة خربشة أريد لها أن تكون كلمات.

حاولت عشرات المرات فك رموز الخربشة ولم أفلح، لم استطع أن أميز سوى كلمات مثل "صورة .. ذكرى .. حياة".

أقلب الصورة وأعيدها إلى صندوق أبي الخشبي الأخضر .. الصندوق الذي يضم صور العائلة وشهادات الميلاد ووثائق البيت ..... وشهادات تخرج مدرسية .. وأوراق لا يفهمها سواه.

صورة عمي تقبع في الصندوق الأخضر مع صحيفة قديمة اصفرت وتمزقت حوافها، غالباً ما تساءلت عن أهمية هذه الصحيفة ليحتفظ بها أبي في صندوقه هذا.

عندما بدأت القراءة تبدد ضجري وترضي فضولي، استطعت في يوم ما وبعد قراءة الصحيفة بجميع صفحاتها أن أفهم سر وجودها في الصندوق.

كان هناك خبر صغير في صفحة الوفيات بعنوان "المأسوف على شبابه حسين" .. كان الخبر حول عمي.

أسأل جدتي كيف مات عمي؟

تتنهد .. تستنجد بدموع استنفدتها منذ سنوات طويلة .. تخذلها لا تجيب.

أسأل أبي فينظر إليّ بحزن . يحتضنني وهو يقول "ما زلت ضفيرة حتى أنا لا أعرف لماذا أو كيف مات عمك".

افتش في صندوق أبي الأخضر .. أقرأ الوثائق .. أتأمل الصور. تباغتني دائماً صورة لوالدي يبدو فيها حزيناً بشكل مريع، واضعاً كفه تحت ذقنه، ناظراً إلى نقطة ما نقطة بعيدة .. بنظرة حزينة عميقة.

كلما رأيت الصورة أفكر لِمَ أبي حزين هكذا خاصة وأن الصورة التقطت في استديو أي أنه ذهب لالتقاط هذه الصورة، فلمَ يبدو حزيناً؟.

في يوم ما، سألت أمي. اعتادت أمي على أسئلتي. كانت تسترسل في الإجابة أحياناً وأخرى تلطمني بصمتها .. غير أني في ذلك اليوم استطعت أن انتزع إجابتها قالت لي وهي تلمح الصورة "التقط والدك هذه الصورة بعد وفاة عمك بعام - لم يكن حزنه على عمك قد فارقه".

أسأل لِمَ ظل حزيناً طوال تلك الفترة؟

- **لأنه لم يستطع أن يفهم معنى موت عمك. كان شاباً يمتلئ حيوية وجمالاً .... وسيماً وصغيراً على الموت.**
- **ولكن يا أمي "كيف مات، أقصد أين ولماذا؟".**

تتأوه أمي بدا الأمر لا منطقياً لنا جميعاً. خرج عمك إلى المقهى كعادته عصر كل يوم .. كان في السابعة عشرة من عمره، لكنه كان طويلاً وضخماً. كان يبدو أكبر من عمره. في ذلك اليوم كانت هناك حملة للقبض على المتهربين من الخدمة العسكرية.

هاجموا المقهى وقبضوا على كل من وجدوه من شباب. لم تفلح محاولات عمك لافهامهم أنه لم يبلغ السن القانونية للخدمة.

طلب منهم أن يذهب إلى البيت ويأتي بأوراقه التي تثبت كلامه. لم يستمع إليه أحد في ذلك اليوم أخذوه مع الباقين إلى معسكر تدريبي وبعد ثلاثة أشهر من التدريب سيق إلى منطقة نائية في الشمال.

بعد أسبوع من التحاقه بوحدته - وجدوا ملابسه على حافة بحيرة عميقة جداً في جيب سترته كانت هناك صورة بخربشات على ظهرها .. دفتر الخدمة العسكرية وبعض القطع النقدية.

لم يكن عمك يعرف السباحة . لذا شككوا بالأمر. استمر الغواصون بالبحث في أعماق البحيرة وبعد ثلاثة أيام عثروا على جثته.

أقاطع أمي "إن لم يكن يعرف السباحة، كيف غامر هكذا؟".

تخفق أمي في إمساك دموعها .. يأتيني صوتها متحشرجاً وهي تقول "لم نعلم بشيء لم نشعر إلا بقرعات على الباب المغلق. فتحنا فوجدنا قريبنا جواد و ....

أقاطعها "من جواد هذا؟".

- القريب الذي وجد جدك وعاد به .. كان جواد يقف عند الباب وخلفه تابوت.

انتقلنا إلى بيت واسع بحديقة .. بوابته كبيرة بيضاء . علقت على جدار غرفة الضيوف فيه صورة جدي الغاضب وصورة عمي الشاب الوسيم.

لم يعد صندوق أبي الأخضر يغريني. ارتاحت أمي من أسئلتي كما ارتاحت جدتي إلى الأبد من خذلان الدموع والأصوات التي تحب.

بعد خمسة عشر عاماً، قرع الدار غرباء. بادلهم أبي الكلمات عند البوابة. في الصباح التالي بكر أبي في الخروج وعاد في المساء بملابس عسكرية فهمنا منه أن عليه الانضمام إلى الجيش الشعبي.

بعد أسبوع من التدريب حمل حقيبته وذهب إلى الشمال.

قبل أسبوع من إجازته الدورية الأولى حضر شخص قال إنه زميل له في الوحدة العسكرية. سلمنا رسالة من أبي يقول فيها أشياء ويطلب أشياء". أخبرنا الرجل أنه سيعود في الصباح التالي.

جلسنا في تلك الليلة نكتب الرسائل ونسجل أغاني سليمة مراد وناظم الغزالي وأم كلثوم ... الأغاني التي طلبها.

وصل الرجل في موعده وتسلم الرسائل والأغاني والأشواق.

في مساء ذلك اليوم، رن جرس البوابة .. فتحنا . وجدنا جواد يقف وخلفه تابوت ملفع بالعلم.

على جدار في غرفة الضيوف تقبع ثلاث صور فوتوغرافية كبيرة الحجم وفي محفظتي الجلدية ثلاث صور فوتوغرافية صغيرة الحجم: جدي الغاضب، عمي الوسيم، أبي الحزين.

لكني فشلت في رؤية جواد أو صورة له حتى هذه اللحظة ولا أدري من أعاد ذلك الجندي القديم إلى أهله عندما قتل في طريق العودة إلى بيته في بابل بعد ثماني سنوات من وقوفه أخر مرة أمام بابنا وخلفه تابوت أبي.

ولا أعرف أيضاً إن كانت لدى ابنته صورة له تعلقها على جدار في بيته وتحملها في محفظتها الجلدية.

friendship

*** قال لها أنه سيحضر في الخامسة مساء. فبقيت طوال النهار تستعد لاخفاء حزنها.**

حاولت أن تستذكر طرائف سمعتها من الصديقات والأصدقاء .. طرائف مكرورة تلوكها مذيعة تقدم برنامجاً يومياً اسمه "مع المستمع" تنقلها عن المجلات القديمة وكتب الفكاهات الشعبية.

أعدت أسئلة حول كتب أعارها إياه وقررت أن تطرحها أمامه لتتشعب الإجابات ويطول الحوار ويختفي الألم من وجهها .. صوتها .

استعدت لكنه ما إن دخل البيت حتى وجدت دموعها تنهمر بلا توقف. ولكي تخفيها غرزت رأسها في كتفه. لكن الأمر لم ينطل عليه، إذ كان نشيجها أقوى من تشبث وجهها بكتفه.

هكذا استمرا واقفين. تبكي بحرارة وهو يربت على كتفها.

وعندما توقف نشيجها، انتزعت رأسها ودخلت المطبخ، سألته دون أن تلتفت "هل شربت الشاي" بينما واصلت دموعها الانهمار.

أجابها بصوت حاول أن يكون حيادياً "سأشربه معك".

كانت تدرك جيداً أنه لن يسألها عما بها إلا بعد أن تهدأ .

لكنها لم تهدأ.

شربا الشاي ودموعها مستمرة. أراها بعض الكتب التي أحضرها لها.

كان يتحدث وهي تومئ برأسها بصمت.

كانت تتواصل معه من دون كلمات. وبصمت كانت دموعها تنهمر.

أخبرها عن كابوس لازمه ليلتين متتاليتين، وعندما انتهى لم تتكلم.

فجأة وجدت نفسها تنخرط بنشيج طويل، فما كان منه إلا أن احتضن كفها وسألها بحنان "هل ثمة أخبار جديدة عن يوسف؟".

لم تجب. صمتت هنيهة ثم وكالمسرنمة بدأت تتحدث بصوت بدا وكأنه يأتي من البعيد "قبل أسبوع رأيت كابوساً مرعباً جعلني أدخل كآبة من النوع الذي تعرف .. ما زال يلازمني حتى هذه اللحظة وكأنه التصق بروحي. أتدري ما كان الكابوس؟".

لم تنتظر إجابة. أكملت "رأيتني أسير في مكان مقفر .. وفجأة ظهرت أمامي بناية عالية جداً. ما إن عتبت بابها حتى شعرت بيد تمسك بي. كانت اليد لفتاة صغيرة. تأملتها وجدتها أنا. أمسكت بيدها وكأني كنت بانتظارها.

وبدأنا نصعد درجات السلم. غير أن البناية لم تكن إلا سلالم وكلما انتهينا من سلم وصلنا إلى استراحة لا تؤدي إلا إلى سلم جديد. ومع هذا لم يكن بمقدورنا اتخاذ قرار العودة.

شيء ما كان يدفعنا للاستمرار وسلم يسلمنا إلى آخر وصدى خطواتنا كان يأتينا مختلطاً مع صدى الهمسات ولغط بعيد برغم خلو البناية من الناس.

لم نفعل سوى الصعود والصعود والصعود.

غير أن السلالم اختفت فجأة ووجدت نفسي أسير وحيدة في ممرات معلقة بالفضاء تطل على الأرض. وأنا أنظر إلى الأرض من سياج تلك الممرات شعرت بأني سأجد يوسف.

ورأيته بالفعل إلا أنه كان خائفاً وحاول تجنبي في البداية لكنه ما إن شاهدني أسرع إليه حتى توقف وأمسك بيدي بدأنا نجول في الممرات ، كان يسير معي متلفتاً خائفاً. سلوكه أخرس أسئلة وددت طرحها عليه.

أثناء سيرنا في الممرات رأيت من بعيد هيئة رجل ينظر إلينا بغضب فما كان من يوسف إلا أن ركض بي إلى ممرات متفرعة عن تلك الممرات.

هناك ظهر أمامنا باب خشبي دفعه وأدخلني إلى مكان بدا كأنه غرفة نوم. لم يغلق الباب. أمسك بيدي وقال لي بصوت خافت "أحبك" قلت له "أنا كذلك لكني لم أعد استطع حبس الكلمات التي بداخلي أود أن أقول لك ..".

لم أكمل جملتي ونحن في وسط الغرفة اندفع إلينا ذلك الرجل الذي أرعبتني نظراته وهيئته. أتذكر أن كفه مقطوعة ولم يحاول أن يفعل أي شيء لإخفاء ذلك. بدا وكأنه يفتخر بإظهارها أمامنا، أما اليد الأخرى فكانت تحمل سكيناً كبيرة، أشار بها إلينا أن نخرج. في تلك اللحظات صرخت بيوسف. "ما يظن بنا هذا الرجل .. أخبره من أنا .. قل له أي شي؟". لكنه التزم الصمت وانصاع لحركة الرجل المهددة بالسكين، وقفت إلى جانب يوسف والرجل يسوطني بنظراته بينما طأطأ يوسف رأسه. ألححت على يوسف "هيا" أخبره ما أكون بالنسبة لك. أخرج بطاقتك؟

أشاح يوسف بوجهه عني متجنباً في الوقت ذاته نظرات الرجل التي تركزت عليّ. كانت نظراته ممتلئة بالاحتقار والغضب والتهديد .. تحت إلحاحي سلمني يوسف بطاقته وما إن مددتها إلى الرجل حتى دس يوسف في يدي شفرة وهمس والرجل يتفحص البطاقة "أضربيه بهذه".

أشرت له برأسي أن لا .

لاحظ الرجل الشفرة في يدي فانتزعها مني بغضب وأطبق على رسغي بها.

شعرت بالحرارة والألم. كان يضغط على رسغي وكلما ضغط أكثر انشغلت عن الألم بسماع قطرات الدم وهي تتساقط على الأرض "تك .. تك .. تك"0

صحوت من الكابوس مرتعبة0 كانت حنفية الحمام تقطر "تك00تك00تك"

توقفت عن الكلام .. عن البكاء .. التزمت الصمت..

بعد فترة قال لها "هية .. ما الذي تودين سماعه؟ تفسير لكابوسك .. تحليل لعقلك الباطن؟".

هزت رأسها نافية "لا .. فقط أريدك أن تشاركني كابوسي؟ مخاوفي. قطع المسافات التي أصبحت تفصلني عن يوسف. لا أريد كلمات، سئمت الكلام".

- "لن أتكلم. لكني أود أن أقول لك شيئاً كصديق أو ما يفترض أنه اكون، يوسف رحل ولن يعود، ربما هو في السجن .. ربما مات .. ربما هاجر واستقر وبنى له عائلة .. ربما ...".

وضعت كفها على فمه "لا تكمل، احتمل موته، سجنه، هجرته .. احتمل كل شيء إلا أن يكون في مكان ما ولا أكون حتى ذكرى بالنسبة له".

خيم الصمت عليهما من جديد .. حاول كسره بالتحدث عن العمل لم تستجب. عاد إلى صمته.

أتى صوتها بعيداً هادئاً منقوعاً بذكرى حزينة "أتدري كان يستغرب حزني وأنا أتذكر قصة كنا قد قرأناها سوية". كان اسمها "الفراشة؟".

صمتت من جديد وكأنها علقت بتلك الذكرى.

- **ما كانت تلك القصة؟**

سألها محاولاً انتشالها من صمتها، حزنها، كابوسها، ذكرياتها.

بصعوبة استفاقت من لحظات موغلة بالذكرى وهي تجيب "القصة عنت لي الكثير حينها وما زالت. لا يمكنك أن تشعر بما مثلته لي إلا عند قراءتها. أقصد لا توجد حبكة أثارتني أو حوار. يمكنك القول أن ما انطبع في داخلي هو الهدوء الظاهري الذي غلف يأس وغضب البطل والبطلة. لا توجد حركة أو توتر خارجي. لا شيء سوى طاولة وضع عليها شمعة يجلس حولها رجل منكس الرأس تتنازعه مشاعر متناقضة، لا يستطيع اتخاذ قرار ما، وامرأة تجلس قبالته متأملة فراشة تحوم حول الشمعة.

كانا وحيدين تماماً. الرجل منغمس في يأسه وتردده وحزنه وصمته والفراشة تحوم حول الشمعة. أما المرأة فكانت مغرقة بالحزن لأنها اكتشفت في لحظة ما إنها تشبه الفراشة التي لا بد وأن تحترق بلهيب الشمعة.

بمرور السنوات انتقلت إليّ مشاعر المرأة وكأن تلك القصة كانت نبوءة لمستقبل روحي .. لحياتنا معاً".

محاولاً انتشالها من اللهب، أمسك بيدها وهو يقول: "أنت فراشة" نعم. لكنك تفيضين بمحبتك علينا جميعاً .. محبتك لن تحرقك بل تزيدك قوة وحيوية لا أدري إن لم تكوني في حياتنا نحن أصدقاءك. كيف كانت ستكون حياتنا؟ الحياة بدون فراشات صحراء مجدبة.

أجابت بشرود "نعم الصداقة شيء عظيم .. لولاها لا حترقت منذ زمن بعيد".

ضحك.

التفت إليه مستغربة "لم تضحك؟".

- **لا شيء .. لا شيء .. تذكرت أول مرة وردت فيها كلمة صداقة أمامي باللغة الإنكليزية . يومها حاولت ترجمة قصيدة كانت فيها "Friendship".**

تخيلت أني أستطيع الاستغناء عن القاموس وأنا أفكك الكلمة إلى "Friend" "أصدقاء" و "Ship" سفينةبخاصة أن سياق القصيدة يتحدث عن الإنقاذ.

فخرجت الجملة " من ينقذنا سوى سفينة الاصدقاء"0

يومها ضحك الاستاذ والطلبة. تذكرت هذا الآن فضحكت.

قالت بثقة وحماس "يا لها من فكرة رائعة. أن تكون الصداقة سفينة تنقذ الغرقى وتطفئ بمياهها النيران التي تحرق الفراشات".

تركها في ذلك اليوم وهي تردد في داخلها "سفينة الأصدقاء. ينبغي أن لا أفقد أشرعتها".

ربما الدموع .. ربما المطر

خرجت من الجريدة بعد أن كتبت متابعة لندوة حول أزمة النص المسرحي عصر ذلك اليوم. كان مسئول الصفحة قد غادر الجريدة بعد أن ترك حيزاً لمتابعتي.

قبل أن أصعد إلى الطابق الخامس حيث مكتبي عرجت على القسم الفني فرأيت الصفحة جاهزة بانتظار متابعتي رأيت المساحة المخصصة لي ثم توجهت للكتابة..

سنوات العمل الطويلة جعلتني أعرف ما مطلوب مني دون أن أضطر للحذف أو يضطر غيري للتعديل .. وبمرور الأيام اختفت نوبات غضبي وأنا أرى كلمة أو عبارة محذوفة أو مشوهة.

شيئاً فشيئاً تبدد اهتمامي بمراجعة المادة بعد التصحيح الأول والتصحيح الثاني والانتظار حتى تنفيذها

لم أعد أبالي بالهاتف وهو يرن بعد ظهورها في الصباح التالي .. أجلس في غرفتي أرتشف القهوة التي أصنعها على مهل وبجدية واتصفح عناوين الصحف المحلية الأخرى والصحف العربية التي يعود تاريخها الى أسابيع ماضية.

وعندما يصل الزملاء أكون قد انتهيت من القهوة والصحف وانهمكت برسم خطوط على دفتر ملاحظاتي غالباً ما تشكل في النهاية غابة نخيل معتمة0

أنغمس في غابة خطوطي .. تغيب الأصوات فيها .. أصوات الزملاء وهم يتناقشون ويبدون ملاحظاتهم حول مواضيع بعضهم بعضا .. أفكارهم لهذا الأسبوع .. ما ينبغي عمله.

يصل رئيس القسم. اجتماع العاشرة صباحاً. أقدم أفكاري لعمل اليوم.

لا يعترض أحد، فالمسرح والسينما والإصدار الجديد لا تغري الزملاء.

وبمرور الأيام أصبحت من نصيبي لم أكن أعترض أن بادر أحدهم وقدم فكرة ما تقترب من ما أسموه "اختصاصي".

أكتب أفكاري وأعرضها ثم أعلقها في لوحة إعلانات القسم كي لا تتعارض مع عمل زميل تخلف عن الاجتماع الصباحي.

بعد الاجتماع أغادر الجريدة أمسح الشوارع الممتلئة بالناس أذهب إلى دائرة السينما والمسرح لأحضر ندوة أو بروفات مسرحية أو تجهيزات فلم ثم أصعد إلى الطابق الخامس حيث الكافتيريا.

أتوجه إلى طاولة في أقصى المكان مع فنجان شاي. أتأمل من النافذة دجلة وأفكر "هل يمكن أن يكون جمال دجلة حقيقياً وعميقاً بهذا الشكل" تفزعني أصواتهم .. ناجي .. إقبال .. رائد،

-... ألا تشبعين من دجلة؟

أجيبهم بابتسامة.

يجلس ناجي قبالتي ويكرر جملته الدائمة .. "حالما انتهى من إخراج هذه المسرحية أهاجر".

رائد يضحك بقوة وهو يقول "هل تهددنا"؟ ليس معك فقط يمكن أن انتزع دور البطولة0

تفلت مني عبارة أندم عليها حالما أتفوه بها 0

- منذ سنوات يا ناجي وأنت تردد سأهاجر حالما أنتهي من هذا العمل.

أعتقد أنك ستفعل عندما تخرج مسرحيتك السابعة.

- لماذا؟ يتساءل بحزن.

- لا أدري. لكني أومن بالرقم سبعة وأنت الآن عند عملك السادس.

يهرب ناجي من كلماتي ويقف متسائلاً "ماذا تريدون من البوفيه "دون أن ينتظر أجابة، بحركة مسرحية وكأنه يحييّ الجمهور يعلن "فاصوليا بالتأكيد".

وسط اللغط والطعام والشاي ومشاريع العمل والسفر والهجرة، استرق النظر إليه. أراه يسير بهدوء واطمئنان غير مبال بثرثرة المدينة وأحلامها المسفوحة على الطاولات والشوارع والبيوت.

أشعر بالحزن .. أستأذن منصرفة.

أعبر الجسر مشياً وبين حين وآخر أتوقف عند سياج الجسر.

أنظر إليه: أتامله .. أخاطبه .. لكنه يستمر في طريقه دون أن يلتفت إليَّ .. يتوقف عند كلماتي .. لغط المدينة .. أحلامها .. أحزانها ..

أعود للبيت .. أمي لم تعد تنتظرني على الغداء منذ سنوات طويلة. أغير ملابسي فأجد الشاي بانتظاري.

تحدثني أمي عن البيت والجيران والشائعات والأخبار والأسعار والجرائم تسألني عن خبر سمعته من المذياع حول زيادة حصة الفرد من المواد الغذائية.

نظراتها معلقة بصوتي .. أستدرك لكن الخيبة سرعان ما تكتسح وجهها وأنا أقول لها عبارتي اليومية "صحيح يا أمي أني أعمل في صحيفة لكنك تعرفين جيداً إني ومنذ أن دمروا العراق لا أقرأ الأخبار ولا استمع إليها .. لا أشاهدها.

أترك فنجان الشاي وخيبة أمي وأصعد إلى غرفتي.

الكتب والأوراق تنتشر في كل مكان .. على الطاولة .. السرير .. الأرض .. عند الوسادة.

افتح باب شرفتي المطلة على الحديقة، أراقب الفصول في أشجارها والأعشاش بالعوائل الساكنة فيها .. أرى عصفورة تحاول أن تمرن صغيرها على الطيران.

يخفق بسبب كرشه المتدلي .. أضحك .. فقط الطيور ازداد وزنها بعد الحرب .. الحشرات تملأ المكان ماذا لو علم الناس بهذا السر؟ أتراهم سينافسون العصافير على سمنتها؟

أضحك بدموع أغفو، أحلم به يلتفت إليّ قبل أن يواصل سيره إلى الجنوب. دائماً إلى الجنوب! صوت أمي يناديني من أسفل السلم " ألا تتعشين؟ كالعادة أجيب لا لكنني سأشرب الشاي".

أنهض من فراشي، أمي تتوسط المائدة مع أختي وأخي.

يبدأون بمشاكساتهم يتهامسون ويضحكون ثمة إشارات مشتركة بينهما لا أفهمها .. صوت أمي ينهرهما بمحبة "ألم تملا من المزاح!" تقولها وتشاركهما الضحك.

أشرب الشاي وأفكر منذ متى فقدت القدرة على الضحك؟

تندمج أختي في المزاح وتسحب من على الأريكة مجلة مقلدة صوتي بصورة كوميدية وهي تقرأ مقطعاً من قصة لي منشورة في المجلة. "منذ متى حدث هذا؟ لا أدري .. ربما بالأمس أو قبل عام، من يعرف؟".

يعلق أخي "أنا أعرف".

يضجون بضحكة طويلة.

أمي فقط تلتزم الصمت بحزن.

أفكر "أتراني ورثت حزن أمي؟".

أختطف المجلة من أختي وأبالغ في السخرية .. أشعر بالإنهاك .. أرمي بالمجلة على الطاولة وانسحب إلى غرفتي .. أتصفح عناوين الإصدارات الجديدة .. أقلبها.

اتذكر (عقائد الموت في العراق القديم)00لا احتاج الى الذهاب الى رفوف المكتبة00 لابد أنه عند قدم السرير 00أمد يدي فتلتقط"النورس جوناثان" 0

آه ! النوارس تأخرت هذا العام كثيرا ربما بسبب حرارة الجو 0

احتضن الكتاب وأردد عباراته التي بت أحفظها.

أغفو وأنا أحلم بقدوم النوارس عند جسر الأحرار والشهداء وبأرغفة الخبز التي أشتريها من ساحة الشهداء أو من سوق الصيادين المطل على دجلة أتجول في السوق زقاق قديم يبدأ بسوق خضار وفي العمق منه محلات تعرض شبكات الصيد وأدوات الصيادين الآخرى.

محلات تعرض تبوغ الشمال ينتهي الزقاق عند دائرة التقاعد القابعة على حافة دجلة .. أحيد عنها حاملة رغيفين .. وأسير إلى جسر الشهداء .. أتوقف عند سياجه وأقطع الرغيفين قطعاً أرميها في الفضاء تتلقفها النوارس قبل أن تلامس مياه دجلة .. أنتشي .. أكلم النوارس بحماسة وفرح .. يمر بي الناس .. يتوقف بعضهم أمارس متعتي حتى يخيل لي أنني محلقة مع النوارس.

تنفد قطع الخبز فتغادرني النوارس لاهية .. محلقة .. تتركني وحيدة بينما يسير دجلة دون أن يلتفت إليّ أو للنوارس .. للمدينة وأحلامها المتناثرة على طاولات المكاتب والكافتيريات والمطاعم .. يسير غير عابئ بالأخبار المؤلمة ، شائعات الأمل،

صوت المذيع، مشاكل النص المسرحي، مقص الرقيب، الجرائم، صور المفقودين، التوابيت الملفوفة بالأعلام، أسعار المواد الغذائية .. شموع النساء عند مرقد خضر الياس، صراخ الأطفال المحتضرين في مدينة الطب المطلة عليه، نحيب الأمهات، أصوات المرضى وصرخات أناس يرون المشارط في غرفة عمليات بلا مخدر ..

يمضي بهدوء مبتلعاً كل شيء بصمت مثلما ابتلع أحبار الكتب من قبل ودماء من أحبوه.

يسير دون أن يلتفت إليّ.

* * *

خرجت من الجريدة فتشت عند البوابة عن السيارة التي توصلني إلى البيت. لم أجدها. كان الظلام قد حل منذ فترة وجيزة والسماء توحي بليلة ممطرة. تمنيت في داخلي أن لا أعثر على السائق كي أبتل بالمطر.

أمي بانتظاري .. سأتصل بها لكي لا تقلق .. لأستمتع بالمطر دون الشعور بالذنب .. أعود إلى استعلامات الجريدة، أتلفن لأمي:

- **لا تقلقي يا ماما .. سأتاخر قليلاً.**
- .....
- **لا .. لا تخافي. لن أعود بسيارة أجرة.**

أضع السماعة وأعرف أن أمي تقف الآن عند النافذة بانتظاري برغم علمها بأني لن أعود قبل ساعة.

بدأت قطرات المطر بالتساقط .. ارتبكت حركة الشارع.

تسارع إيقاع خطوات المارة مع تسارع تساقط المطر.

رائحة الأشجار والأرصفة والمطر يغسل شعري تبرعم في روحي أشواقاً تيبست.

السيارات بإطاراتها المتآكلة تسير بحذر .. يحتمي المارة من المطر بسقائف المحلات والمكاتب وزوايا الشوارع.

أسير بحرية .. المطر يمنحني الأرصفة .. لا أحد يزعجني .. أسير بهدوء وسعادة .. تأخر المطر هذا العام.

أحاول أن أتذكر كم مرة استقبلت المطر بدونه منذ رحيله إلى بلاد لا تعرف سوى الأمطار .. أحاول فأخفق.

تحزنني ذاكرتي. يبدو أني كبرت كثيراً ماذا سيقول لو أخبرته بأني لم أتذكر كم مرة أمطرت السماء بدونه.

لن يصدق بالتأكيد .. وسيقول لي عبارته التقليدية "أنت ذاكرة بقدمين".

ربما رحل متحرراً من الذكريات .. مطمئناً أنها معي.

لقد رحل .. رحل .. لذا ينبغي أن أنسى .. أن أنسى.

كنت أسير تحت المطر وأنا أردد عبارتي هذه "ينبغي أن أنسى .. أن أغير حياتي". باغتتني لمسة على كتفي، ارتبكت وأنا أفكر"أتراه عاد؟".

جاءني صوتها "هل أخفتك؟".

لم أجب .. ألتفت إليها كانت سيدة خمنت أنها في منتصف الأربعينيات. ملامحها جميلة .. ترتدي معطفاً بنياً وشالاً أسود .. لا بد أنها كانت خارقة الجمال في الماضي.

بالتأكيد لا أعرفها. سارت إلى جانبي قالت بعد فترة صمت "هل أنت متوجهة إلى كراج الباصات؟".

أشرت برأسي "نعم".

- أيمكنني مرافقتك؟

لم أجب.

سارت إلى جانبي بصمت عبرنا جسر المشاة في باب المعظم بخطوات بطيئة وكأننا نسير تحت سماء مقمرة.

كانت مكتبة النجفي ما تزال مفتوحة فكرت بالدخول، لاح لي وجه أمي وهي تنتظرني عند النافذة المطلة على الشارع اكتفيت بتأمل واجهة المكتبة. كانت السيدة ترافقني بدون انزعاج.

مررنا ببريد باب المعظم. تطلعت إلى البوابة الكبيرة الصفراء.

منذ متى لم أتلق رسالة أو أكتب رسالة رغم سيل الحقائب المهاجرة الذي لا يتوقف؟

شعرت باليأس فحثثت خطاي باتجاه الميدان.

كانت سقيفة باص (96) تكاد تخلو من المنتظرين. لم يكن هناك إلا الرجل العجوز الذي لم يمر يوم إلا ورأيته في المكان جالساً هكذا، يتأمل بانغماس الباصات الغادية والذاهبة.. الركاب يغادرونها أو يحتشدون فيها دون أن يترك مكانه لطالما فكرت .. "ترى ما الذي ينتظره هذا العجوز؟".

وغالباً ما تراودني فكرة كتابة قصة يكون بطلها هذا العجوز.، وكالعادة ظلت الرغبة مجرد فكرة وكأن وجود الرجل اليومي يجعلني أستسلم لعيش القصة على كتابتها

أفكر "أتراني سأكتب القصة إذا ما اختفى أو أغراه باص في يوم ما؟" انتظرنا الباص حتى وصل، لم أسأل السيدة إن كانت وجهتها وجهتي نفسها .. لا بد أنها الوجهة ذاتها وإلا لما جلست منتظرة.

ونحن في الباص قالت .. "أنا أنزل في البياع".

لم أجبها .. نظرت إليها دون أن أخبرها وجهتي.

اتخذت مكاني عند النافذة وبدأت أتأمل الشوارع قطرات المطر الكبيرة وهي تتساقط على أعمدة الكهرباء فتبدو كشلالات ضوئية سمعتها تقول "منظرك وأنت تسيرين تحت المطر باكية أحزنني كثيراً لست فضولية كنت أسير فباغتتني دموعك".

حاولت أن أضحك وأنا "أسألها كيف استطعت الحكم أنها دموع وليس المطر؟".

قالت بشرود: لا .. كنت تبكين .. نعم، هذا ما جذبني إليك.

لم تكمل إذ بدأت تذرف الدموع وهي تحاول أن تخفيها مشيحة بوجهها إلى الجهة الأخرى.

صمت وعدت إلى نافذتي.

سمعت صوتها وكأنها تتحدث إلى نفسها "زوجك .. أليس كذلك؟".

لم أجب.

استمرت "أتراه تخلى عنك؟".

اردت أن أخبرها بأني لست متزوجة. لكني عدلت عن ذلك. لا أدري أي عاطفة طغت علي فقررت أن لا أخذلها كما أفعل مع أمي وزملاء العمل. لم تكن بحاجة إلى إجابة كانت بحاجة إلى شخص يصغي إليها فقط .. أحسست بأن عليّ أن أشعرها بأني مثلها تماماً وأنها ليست وحيدة.

استرسلت "نعم، مثلي. هو لم يعد يشعر بي. الحياة صعبة. الأولاد لا يشعرون بي أيضاً. الجميع تخلى عني. فكرت أن أخبرها بأنها أفضل حالاً مني ربما وأنني اليوم وتحت المطر قررت أن أغير حياتي بعد فوات الاوان، وأن هذا ما كان يبكيني.

قررت أن لا أفكر ولا استمع إلى أحد .. التحرر دفعه واحدة من كل شيء مثل دجلة تماماً أسير بأحزاني وذكرياتي دون أن التفت إلى أحد.

لكني لم أخبرها بشيء كانت دموعها المتجددة تخرس صوتي.

–أنا متزوجة ولديّ أربعة أبناء لست فارغة أنا مؤمنة بالله.

ما يحزنني ويخيفني أني بدأت أشعر بأن الله تخلى عني ..

تخلى عنا جميعاً. أشعر بالخذلان .. كل شيء يخذلني: زوجي .. أولادي .. صديقاتي .. زملاء العمل.

قاطعتها محاولة تغيير مسار حزنها "هل تعملين؟".

– نعم، أنا مهندسة. لكني لم أعد أشعر بشيء .. لا بالعمل .. ولا بالبيت والأولاد اشعر باختناق حتى دراسة تصميم الديكور في أكاديمية الفنون لم تبدد غربتي ووحدتي.

- هل كنت في الأكاديمية الآن .. أقصد دراستكم تستمر حتى هذا الوقت؟.

أومأت "نعم" وهي تمسح دموعها بمنديل وردي شفاف.

أكملت: لا أدري لم أحدثك، أنا لا أعرفك .. ولا تعرفيني .. لكني عندما رأيتك تسيرين تحت المطر باكية، تحرك الغضب والحزن الذي في داخلي. أردت أن أمسك بيدك وأقول لك "دعينا نصرخ ونبكي بصوت عالٍ معاً".

حاولت أن أخفف عنها "أهدأي، ولكن ما المشكلة إن كان لديك زوج وأبناء وعمل ودراسة؟".

نظرت إليّ بسخرية ويأس "تفاهات .. كل هذا ليس بالمهم، أنا لست ملحدة .. أنا مؤمنة. كل يوم يمر أشعر أن الله تخلى عني .. تخلى عنا جميعاً".

كل شيء يتعبني .. فقدت القدرة على حب كل شيء طالما أحببته في حياتي، الحقد تسلل إلى روحي .. أحقد على كل من يطلب مساعدتي.

المتسولون الذين بتّ أعرفهم .. أنهم يستغلون قلبي. معالم البؤس لم تعد تثير شفقتي .. بل حقدي أن قلبي يتفطر لأني لم أعد أشعر بأحد. أنا أتألم ليس الجوع ما يهزني بل امتهان الجوع فكرة أنهم يضحكون من طيبة قلبي تدمرني لم يعد العمل يقدم لي ما حلمت به.

أنا وحيدة .. وحيدة رغم كل شيء .. رغم الزوج والأولاد والأصدقاء وزملاء العمل والدراسة.

دائماً ما أتساءل ماذا يعرفون عني؟ لم لا أتحدث عما أشعر به أمامهم؟

توقفت المرأة عن الكلام مسحت دموعها.

كنا قد وصلنا البياع. حالما توقف الباص غادرت المقعد دون أن تنظر إليّ أو تبادلني كلمة. سارت بخطوات ثابتة ونزلت، عندما تحرك الباص التفت إلى الجهة التي سارت فيها.

كانت تمشي بخطوات بطيئة رافعة المنديل إلى وجهها فكرت ربما المطر .. وربما الدموع.

ابتعد الباص ولم أعد أرى صاحبة المنديل. حينها انتابني شعور ملح بالصراخ "سأغير حياتي .. سأغير حياتي .. سأمضي دون أن التفت مثل دجلة تماماً".

قطرات المطر وهي تبدو مثل أشعة شفافة عكستها أعمدة الكهرباء، عززت من شعوري بالوحدة.

فكرت أنه وحيد مثلي تماماً الآن .. يتلقى المطر ويسير إلى الجنوب.

وصلت إلى البيت كانت أمي واقفة عند النافذة .. شاهدتني ففتحت الباب حالما رأيتها احتضنتها ورحت في نوبة بكاء طويلة ..

" كـــراسي"

كانت تعرف بدقة تاريخ كل كرسي من كراسي مطبخها الواسع الذي أضاءته الضحكات سنوات عدة .. حدود وحجم الأجساد الممتلئة حيوية وهي تشكل بأرواحها تاريخ تلك الكراسي.

لم تكن تلك الكراسي بالنسبة لها مجرد أخشاب تفنن النجار في صنعها، بل كانت همسات ومناقشات، أحاديث تعج بالأسرار الصغيرة والكبيرة .. إطراقات .. مصالحات .. لحظات غضب وعتب ..

كما لم تكن الأصوات التي تصدر عنها صرير أخشاب حسب، فهناك الحركة الناتجة عن استغراق في ضحكة أو الانغماس في تقليد شخصية ما أو موقف كوميدي .. صمت طويل .. إيماءات .. طريقة لشرح محبة بحركة جانبية أو دليل غضب مع حشرجة تنتقل من القلب إلى أرجل الكرسي.

أكثر من عشرين عاماً والكراسي في موضعها. كل كرسي حصل على مكانه كما يحصل الناس على أسمائهم. الأجساد الغضة أصبحت فتية والأقدام تتنازل لتلمس بلاط المطبخ .. تتمادى للتماحك تحت الطاولة.

احتفظت الكراسي بأماكنها والأجساد بكراسيها.

على طرف المائدة المستطيلة وقريباً من الطباخ الغازي وحوض غسل الصحون كرسي الأم. وفي الطرف المقابل كرسي الأب.

متقابلان. كرسيان متقابلان . وجهان متقابلان تشابهت ملامحهما من كثرة ما تقابلا في الحياة وحول الطاولة.

على يمين الأم أعتاد مصطفى الابن الجلوس واتخذت سمية الابنة كرسياً إلى يمين الأب.

بين الأم وسمية وبين الأب ومصطفى قبع كرسيان طويلاً بانتظار أن يتشكل كيانهما.

بعد سنوات اتخذ علي خطيب سمية مكانه بينهما وبين الأم بينما ظل الكرسي الواقع بين الابن والأب كرسياً للعابرين من الأصدقاء الحميمين والأقرباء الذين يشاركونهم الطعام في المطبخ.

كانت الأم تشبه كرسي العابرين بالسن المخلوعة في صف أسنان متكاملة ناصعة.

لم يكن من الصعب عليها معرفة الزمن الذي بدأ فيه الخلل في نظام جلوسهم .. حياتهم. كان بإمكانها تحديد العام والشهر بل اليوم والساعة حيث تخلخلت أول سن وتحركت قبل أن تنخلع.

كان ذلك في ليلة شتوية عادت فيها سمية إلى المنزل بصحبة خطيبها الذي لم يرافقها كعادته إلى المطبخ ليجلسا إلى الأم محدثيها عن جولتهما لانتقاء أثاث بيت لم يكفا عن التكلم عنه أربع سنوات متتالية.

كانا كلما شرعا باتخاذ خطوة لاستئجار بيت الزوجية وتحديد موعد الزواج يحدث هجوم على إحدى جبهات القتال فيضطر علي للالتحاق بالجبهة والانتقال إلى موضع الهجوم .. التغيب فترات طويلة قبل أن يعود في إجازة ليخططا للزواج.

لذا استحق علي لقب "الخطيب المعتق" وأصبح تحديد موعد زواجهما مناسبة للتندر بين الخطيبين وأفراد العائلة.

كانا يرفضان مقترحات عائلتيهما في التزوج في أحد المنزلين ويصران على بدء حياتهما في بيت طالما حلما به منذ كانا طالبين متحابين في الجامعة. البيت الصغير المكتفى .. بيت بغرفة نوم وأخرى للضيوف ومطبخ يستخدم كغرفة معيشة وحمام وحديقة صغيرة لا يزرعان فيها سوى الزهور مع نخلة قررا أن يشتلاها في أول يوم يسكنان فيه، لتؤرخ لحياتهما معاً.

في تلك الليلة دخلت سمية المنزل وحدها ولم تتوقف في المطبخ وعلي إلى يمينها .. يخبران العائلة بما شاهدا والمفارقات التي مر بها وآخر نكته تبادلاها أو ابتكراها.

شقت طريقها مسرعة إلى غرفتها في الطابق العلوي دون أن تكلم أحد.

تبادل الأم والأب نظراتهما المتقابلة بصمت. كان تاريخ الكلام بينهما طويلاً وراسخاً جعلهما يفهمان بعضهما دون أن يضطرا إلى الكلام. نظرة متقابلة من كرسيهما المتقابلين كافية للتعبير عما يجول بداخلهما.

أفصحت نظراتهما عن وجود مشكلة بين سمية وخطيبها ولأنهما اعتادا عدم التدخل فيما يحدث بين الشابين التزما الصمت بإصرار.

لم تظهر سمية في تلك الليلة ولا في الصباح التالي وظل كرسيها خالياً. بعد الفطور قرر الأب الصعود إلى غرفة سمية ما دامت الأم غير قادرة على تسلق درجات السلم لألم في مفاصلها.

دق الباب. نادى بصوت حنون "افتحي يا سمية .. أنا بابا"

لم ترد.

كرر النداء بصوت تهدج حزناً وقلقاً "هل تبخلين على حبيبك بابا بكلمة" لا شيء سوى الصمت.

كان مقتنعاً بأن الأمر يتعلق بمشكلة جدية مع علي الذي ظل كرسيه خالياً هو الآخر ذلك الصباح ولم يحضر للإفطار معهم ومن ثم اصطحاب سمية كعادته أثناء إجازاته.

قرع الباب مرات ومرات. ازداد قلقه خاصة وهو يعرف جيداً أن سمية رغم عنادها وقوتها فإن نقطة ضعفها تكمن في محبتها وتعلقها الكبير به. عند تلك اللحظة أدرك الأب أن عليه الاستنجاد بمصطفى لكسر الباب. دخلا الغرفة فوجدا سمية ملقاة على السرير كشيء مهمل .. كورقة لم يرض قارؤها عن ما سطر فيها، فرمى بها بغضب بعد أن جعدها بقسوة وانتقام.

كانت فاقدة الوعي وقد غيب الدم المتخثر ملامح وجهها بينما رسمت بقع الدم أشكالاً مختلفة على شرشف السرير الأبيض بسوسناته المتناثرة. بدت متخشبة الجسد بملابسها الداخلية الملطخة بالدم وفستانها الذي كانت ترتديه الليلة السابقة ممزقاً على الأرض وتمثال البرونز لكيبوبيد إله الحب هدية علي لها ملطخاً بالدم عند قدميها.

حاول الأب إزاء المشهد أن يتماسك. لم يستطع أن يلمسها أو أن يقوم بشيء ما. جلس على الأرض وبصوت مختنق طلب من مصطفى الاتصال بعلي الذي جاء مسرعاً ونقل سمية إلى المستشفى.

لم يتكلم علي طوال الطريق ولم يعلق. كانت ملامحه حزينة صارمة . حاول الأب والحت الأم إلا أنه لم يستجب. فقط تحصن بصمته.

جلس علي منتظراً مع الأم إلى جانب سمية حتى زال الخطر وأعيدت إلى البيت.

في البداية لم تكن قادرة على فتح عينيها. وعندما استعادت وعيها كل ما فعلته هو البكاء بصمت. كانت دموعها تنهمر بلا توقف. في عصر اليوم ذاته تغيب علي لساعة ثم عاد برفقة قاض وصديقين.

استقبلهم الأب باستغراب. تجاهل علي ملامح الأب المندهشة .. المتسائلة بإلحاح وتحدث بعفوية "يا عمي ألم تكن أمنيتك أن نتزوج؟".

طأطأ الأب برأسه "نعم". ثم استدرك متمتماً غير مصدق ما يحدث "ولكن يا ولدي بهذه الطريقة وفي مثل هذه الظروف؟".

- **"نعم يا عم .. لا وقت لدينا . سمية متعبة ولا يبدو لهذه الحرب من نهاية0 و عليّ أن التحق بالجبهة بعد يومين وقد أتغيب أكثر من شهر قبل**
- **أن أعود هذا إن لم يحدث هجوم على جبهتنا ثم هل أنت من يهتم بهذه الشكليات".**

قال الأب بعد برهة تفكير لكن بتردد "ليكن".

حاولت الأم أن تبدي اعتراضها لكنها عندما استرجعت وجه سمية ودموعها ومحاولة انتحارها أذعنت بصمت.

تم كل شيء وسمية في سريرها المطرز بالسوسن وبقع الدم بينما قبع كيوبيد على الطاولة منسياً مهملاً ملطخاً بالدم.

أمضى علي الوقت إلى جانب سمية وظل الكرسيان شاغرين لذلك اليوم والذي تلاه.

في صبيحة اليوم الثالث ودع علي العائلة مغادراً إلى الجبهة. غير أن كرسي سمية بقى خالياً مثلما بقيت صاحبته صامتة ترنو إلى ما يحيط بها بعينين فارغتين إلاّ من الحزن.

كانت لا تترك غرفتها إلاّ حين يطرق سمعها جرس الباب بخطوات متلهفة مسرعة تختصر السلم درجتين درجتين لتجلس عند آخر سلمة.

ظلت سمية فترة طويلة تتحرك في حدود تلك المساحة بين سريرها وآخر سلمة ولم تيأس.

عند آخر سلمة حيث تجلس بانتظار معرفة الداخل إلى البيت، كانت تنسج الأعذار وتبتكر الحجج لغياب علي وانقطاع أخباره .. رسائله . مرددة "سيعود . أعرف أنه لن يتخلى عني. لن يدع الموت يسبقه إليّ".

كانت تتمتم بذلك بصوت مسموع أحياناً بعد كل دقة جرس ورنين هاتف وخطوات ليست له. خطواته التي كانت تفتخر بأنها تميزها من بين مئات الخطوات مغمضة العينين ومن على مسافات بعيدة.

كان الأب يراقب سمية دون أن يجرؤ على طرح الأسئلة أو التعبير عن قلقه أمام الأم.

الكرسيان متقابلان . الوجهان متقابلان . غير أن العيون تتجنب المواجهة وتصب نظراتها على الكرسيين الفارغين.

لم تكن عينا الأم المنتفختان الذابلتان من البكاء سراً إلا علامة على أشياء ومخاوف لم يبح بها.

أما الأب فقد انكمش في كرسيه يذبل ويشيخ. مع كل دقة جرس أو رنة هاتف ومع كل قفزة من قفزات سمية على السلم .

كان يشعر بتلك القفزات المتلهفة المحتضرة عند السلمة الأخيرة كسكاكين تخترق روحه وتقطع خيوط أيامهم الماضية ... قفزات تصله بالموت ..

أربعة أشهر مرت وكرسي سمية وعلي يدعمان من غربة الأم والأب، ومصطفى الذي أصبح خلو كرسيه يتكرر بمرور الأيام.

لم يكن قادراً على الصمود أمام الكراسي الفارغة والحياة الخالية من الحياة والعيون المحتقنة والأصوات المتحشرجة وذبول الأم وذوبان الأب في هوة من المخاوف والأحاديث التي لم تقال ولا يراد لها أن تقال.

ورقة في مظروف رسمي أسمر وصلت يوماً فنسفت حياة الكراسي. فبعد رحلات ذهاب وإياب في السر والعلن إلى جهات ووحدات عسكرية كان يقوم بها أفراد العائلتين لمعرفة مصير علي، تسلموا تلك الورقة الصغيرة التي تضمنت كلمة حاسمة صممت لكي تكون واضحة "مفقود".

"ماذا تعني كلمة مفقود؟".

تساءلت الأم وكأنها تهذي. لم تتلق إجابة. لم تكن تبحث عن إجابة.

أما سمية فلزمت غرفتها بصمت. لم تبك. لم تتكلم ولم تعد تهرع إلى السلم بعد كل رنة جرس.

هكذا تقوقعت داخل عالمها، متحصنة به من ثرثرة الكلام وعبارات المواساة وكلمات التشجيع.

لم يستطع أحد أن يخرجها من عالمها . لا الأهل ولا الصديقات ولا الأطباء. لا أحد.

كانت نظراتها الساهمة لا تعبر عن شيء وكأنها ارتدت إلى داخلها وعلقت هناك .. تتلمس طريقاً إلى نقطة في ذلك العالم بهدوء وروية وبلا تعجل ..

بمرور الأيام امتنعت عن تناول الطعام والشراب الذي كانت يد الأب المرتجفة تدخله إلى فمها بينما هي منغمسة في عالمها. فاضطروا إلى تغذيتها من الوريد لكنها واصلت تلمس طريقها إلى تلك النقطة.

كانت ترفض الحياة بقوة وصمت.

في ليلة وفي نوبة من نوبات الحمى، سمعها الأب الساهر إلى جانبها وهي تهذي "أنا قتلت علي .. قتلوني وقتلوه ..".

بعد تلك الليلة بأيام لم يعد كرسيها فقط خالياً بل سريرها المطرز بالسوسن وماضي روز أحمر.

كان الأب يمضي ساعات طويلة في غرفة سمية .. يتشرب آثارها في المكان .. يتحسس تمثال كيوبيد .. يكتشف وجود بقعة دم في رأس التمثال . يبكي.

عندما يهدأ يعود إلى غرفته ليشكل الصورة ويركب أجزائها كأحجية: الليلة التي عادت فيها سمية بهيئتها الغريبة .. محاولة انتحارها .. زواجها في تلك الظروف .. عدم عودة علي والكلمة الواضحة الغامضة (مفقود) .. هذيانها الفالت من جدران عالمها المحكم.

علي مفقود وسمية رحلت.

اختفيا ومعهما دفنت الحكاية.

غير أن الأب لم يتوقف عن نسج الحكاية. كان ذلك بمثابة تأجيل لحزنه .. تأجيل لحقيقة فقدانه علي وسمية بعبث .. دون منطق أو مبررات أو حتى حكاية.

كان الأمر بالنسبة للعائلة وكأنه كابوس اشترك الجميع في التعرض إليه بعد الانتهاء من فيلم السهرة والإخلاد إلى النوم وأنهم سيصحون منه ويتحدثون عنه وهم يجلسون في كراسيهم للإفطار .. وسيتندرون ويخططون للامتناع عن مشاهدة الأفلام الكلاسيكية وبرنامج "صور من المعركة" اليومي وسيكفون عن قراءة الروايات الحزينة والاستماع إلى الأغاني العراقية القديمة.

وسيعلق مصطفى بأنه سيترك أغاني الخمسينات والستينات والسبعينات لوالديه وسمية وعلي ويستمع إلى الأغاني الجديدة ذات الإيقاع السريع والكلمات التي بلا معنى.

لكنهم عندما يستيقظون ويجلسون في أماكنهم تباغتهم الكراسي الخالية فتصفع حلمهم في أن يكون ثمة كابوس مشترك.

"أنا قتلت علي .. هم قتلوني وقتلوه".

كانت هذه الكلمات تطارد الأب في أرجاء البيت: غرفة سمية .. عند السلم .. في رنين جرس الباب .. في أرجاء المطبخ .. في صمت الكراسي المهجورة .. في النظرات الهاربة من المواجهة .. في الكلمات التي لا تقال .. في عيني الأم المنتفخة من البكاء، وفي خطواتها الثقيلة بين الطباخ الغازي والطاولة .. في الطعام الذي يتظاهرون بتناوله

.. في حركة مصطفى المتململة في كرسيه وتهربه من وجبات طعام مثقلة بالحزن والصمت.

في أحد الصباحات ظل الأب في فراشه بعد ليلة محمومة أمضاها في حل الأحجية طارده فيها صوت سمية الخارج من بئر الحمى والحزن "قتلوني .. قتلوه".

بينما جلست الأم في كرسيها تراقب مصطفى وهي تحتسي فنجان شاي ترك نصفه وغادر كرسيه هارباً من إطراقة الأم وصمت كراسي انضم إليها غياب جديد.

لم تجد دموع الأم ولا كلمات مصطفى المواسية في إخراج الأب من مسار حركة واحدة انحصرت بين سريره وسرير سمية الفارغ..

ارتعاشة يديه وهي تمسد تمثال كيوبيد مرة وتتحسس مغلفاً رسمياً أسمر حمل كلمة (مفقود) في ليلة قبضت أصابع الأب على كيوبيد بقوة .. وعندما حمل إلى القبر كانت الأصابع تمسك بتمثال من الهواء.

بانتهاء الحرب كانت هناك ثلاثة كراسي فارغة لم يشغلها سوى غياب لم تردمه الذاكرة وشبح فقدانات جديدة فاحت بها الأخبار المتحدثة عن حرب في أفق أطبق على ما تبقى من حياة الكراسي.

كانت الأم تمضي الوقت وهي تستمع إلى الأخبار والشائعات .. محدقة بكرسي مصطفى وفي أعماقها شعور ينمو بأنه سيتحول في لحظة إلى تابوت.

غير أن التابوت هذه المرة كان كرسياً في طائرة باتجاه واحد. لم يحمل مصطفى معه تمثالاً أو صرخة هذيان كانت حقيبته على الطاولة بينما جلس في كرسيه يتمتم بكلمات وداع منكس الرأس.

وحدها الأم تجلس في مكانها تحاور الكراسي وترى أحبتها وهم يكبرون أمامها ويرحلون بغموض مخلفين كراسي تمعن في إحضارهم.

مشهد من تلـة

كانت تشعر بأنها أمست بعيدة عن تلك الطمأنينة التي ناضلت روحها للحصول عليها طمأنينة اعتياد الفقدان. الطمأنينة التي لا يمكن الوصول إليها إلا بعد استنفاد كل مساحات الألم والوحدة.

لقد عاشت في تلك المساحات سنوات عدة واستهلكت كل أبعادها - بعدها جاءت الطمأنينة . طمأنينة أكدت لها بأنها وحيدة ومنسية. لا شيء أكثر من هذا والحزن الذي كبر وترعرع في تلك المساحات لم يعد بحاجة إليها ..َ لرعايتها، وأن عليها أن تعامله كرفيق درب جمعهما تاريخ طويل من الألم في نهايته لم يعد للوحدةمن مكان . هما معاً . دائماً معاً.

غير أنها في لحظة ما، شعرت بأن شيئاً ما يحدث لها، لم تستطع فهمه، كل ما كانت تعرفه بعد كل تلك الأشواط بأنها بحاجة للتوقف والتحدث إليه كأن تقول له: عفواً، علينا أن نتكلم قليلاً. هل سنواصل هكذا.

كانت تتساءل ما الذي يحدث لي أتراني ضعفت؟ كيف تسللت إليّ رغبة التوقف ومراجعة أوراق الماضي .. ما معنى هذه الرغبة .. رغبة استبدال الطمأنينة بأخرى من نوع آخر .. كيف تسرب إليّ ذلك؟.

أذهلها شعورها بالحزن وكأنه ينمو بأحشائها من جديد .. ما كان يفزعها هو خطر عودة كل شي إلى اللحظة التي انطلق منها .. كان ذلك يعني أن تعيد الكرة تنتظر .. تعاني .. تتألم من جديد.

في تلك اللحظات عادت مريم بحكايتها الغريبة الحزينة لترسم أبعاداً جديدة لمساحتها . مريم التي خبرت كيف تتجاهل حكايتها وكأنها لا تمت إليها بصلة، وكأنها شخصية تنتمي إلى كتاب أو فيلم سينمائي

* * *

لم يكونا بحاجة الى بدء تاريخ من الكلام.

التقيا وكل واحد منهما يمتلك تاريخ من الكلام والحزن والوحدة والفقدان.

لم يتبادلا هذا التاريخ لكنهما اندفعا لتأكيده دون أن يعيا وربما دون أن يودا الاعتراف بذلك.

كانت في نهاية اربعينياتها وهو في ختام خمسينياته.

اعتاد أن يراها في مكان معزول عن المدينة لا يرتاده عامة الناس وخاصة امرأة في مثل عمرها.

تلة عارية إلا من سدرة وحيدة ، كانت مريم تجلس عندها، شاردة الذهن تنظر إلى نقطة ما في أفق شكله غبار يغلف مدينة طينية.

كان مشهد المدينة من تلك التلة يساعد مريم على احتمال المدينة المنقوعة بالفقر والبؤس والأوبئة.

كان يحلو لها، هي الغريبة، أن تعيش فكرة المدينة لا واقعها: مدينة غافية ضبابية الملامح متوحدة مع الأفق.

أما هو فكان يتعمد سلك تلك الطريق المنعزلة أثناء توجهه إلى عمله في المدرسة كل صباح يتخذ مسربا تحف به أشجار الكروم تقود نهايته إلى تلك التلة.

كل يوم الشيء ذاته، الخروج مبكراً .. السير في طريق الكروم ثم التلة، فالمرأة المستندة إلى السدرة تنظر إلى الأفق.

كان يعرف من تكون: امرأة غريبة ظهرت فجأة في المكان ومع ظهورها نسجت الحكايات والتكهنات وبعد حلول حكاية أخرى في حياة المدينة نسيت مريم وكأنها جزء من المدينة وتاريخها الراكد المنسي.

لكنه لم ينسَ، كانت حكايتها التي التقطها من أحدهم عندما وصل قبل ثلاث سنوات تطل عليه كلما بزغ أمامه مشهد المرأة على التلة.

كان قد سمع أنها تنتظر رجلاً بلا أمل. أما من ذاك الرجل أو كيف عرفوا أنها بانتظار رجل؟ فلم تكن هناك إجابة.

كان المشهد الصباحي هذا جزءا من حياته منذ وصوله هذه المدينة.

ثلاث سنوات وهو يعيش المشهد وكأن الزمن توقف في لحظة ما وأطبق على تفاصيله: أشجار الكروم تبزغ وتثمر .. تخلع خضرتها .. ترتدي لون البن .. صوت البن وهو يطقطق تحت خطواته .. الشمس تذهب وتعود .. وهي في مكانها في تلة انتظارها: تنتظر استيقاظ المدينة .. تطمئن على سريان الحياة فيها وكأنها تخشى اللحظة التي يمكن أن تتجمد فيها صورة المدينة الطينية الملتصقة بالأفق، الموشاة بالضباب.

فبعد أن تأخذ الشمس مكانها بقوة فوق سطوح البيوت والشوارع ووجوه البشر، تغادر مريم سدرتها .. تلتها .. مدينتها الفكرة وتسير بخطواتها الأربعينية إلى بيتها الذي أخفق الفضوليون في معرفة موقعه أو الطريق إليه.

تسير بانحناءة من يجبر نفسه على مواجهة يوم جديد .. وبين فترة وأخرى تعيد خصلة من شعرها الفضي إلى اسار الوشاح البني.

في الشتاء ترتدي معطفاً جلدياً أسود وفي الصيف معطفاً حريرياً بني اللون يصل إلى كعب قدميها.

كان من الصعب معرفة تفاصيل جسدها إلا أن المعطف الفضفاض لم يتمكن من إخفاء ترهل ذلك الجسد.

* * *

في صباح صيفي استيقظ ابراهيم (كان هذا هو اسمه) أبكر من المعتاد. حلق ذقنه وهو يترنم بلحن أغنية قديمة لم ينجح في تذكرها فشكل كلماتها بما يتفق مع اللحن .. ارتدى ملابسه وهو يدندن بأغنية خلق كلماتها، لم يتبق منها سوى لحن ومشاعر قديمة طالما رافقتها.

خرج من بيته بخطوات جذلة شعر باختلافها عن خطواته اليومية المتوجهة إلى العمل. استنشق رائحة الصيف وهو يدلف طريق الكروم .. انتابته موجة من الحماسة فقرر أن لا يذهب إلى المدرسة.

وصل التلة. لم تكن المرأة قد وصلت بعد، رائحة الصيف دفعته لتسلق التلة. واتته رغبة ادهشته قوتها لوهلة، رغبة أن تكون نظراته أول نظرات تمسح المدينة النائمة . تجاهل التفكير بأن الأمر يتعلق برغبة دفينة طالما راودته في الكشف عن الشيء الذي يشد المرأة من هذا المكان.

وقف ابراهيم ملبداً بحماسة ورغبات ملتبسة وما إن جلس عند السدرة حتى سمع خطوات تقترب منه.

تظاهر بأنه لم يشعر بالخطوات وواصل نظراته باستقامة وجدية إلى المدينة جلست مريم على مسافة منه، بعيدة عن مكانها الذي احتله الغريب.

بعد فترة اختلس نظرة جانبية إليها. قرأ انزعاجاً خفياً على وجهها الذي وزع نظراته المرتبكة بين المدينة والموقع الذي كان إلى قبل دقائق مكانها لزمن لم يعد أحد يتذكره.

وجد نفسه يقول بعدم ثقة: عفواً لم أقصد أن أخذ مكانك.

لم تجب . واصلت النظر إلى المدينة بملامح امتقعت غضباً.

واصل "سأترك المكان إن كان هذا سيريحك".

أشارت بحركة من يدها "لا عليك" حركة تعبة .. يائسة شعر بها حزينة محملة بالألم .. حركة أوجعت قلبه وبددت كل الحماسة التي كان يمتلكها .. حركة أضاعت كلمات الأغنية التي خلقها واللحن الذي حاول استرجاعه دون فائدة ليستجمع شجاعته.

فكر أيمكن لحركة أن تحمل كل ما حملته يد هذه المرأة .. أن تسبب لي الألم بهذا العمق؟.

محاولاً التخلص من الشعور بالألم وانقاذ الصباح، وقف فجأة وترك المكان بخطوات مرتبكة.

سمع صوتها يناديه بهدوء "يمكنك الجلوس إن كنت ترغب بذلك". وكأنه كان بانتظار تلك اللحظة عاد إلى المكان.

جلسا صامتين فترة غير قصيرة.

سمعها تقول له بالنبرة الهادئة العميقة "الحياة أشبه بالحريق .. لهب ينساه العابر، ورماد تذروه الريح، وإنسان كان قد عاش".

لم يعلق على كلامها. لكنه بعد وهلة تساءل .. أليس هو نفسه من قال "إذا خربك الألم، إذا بلغ بك إن تمنيت أن يخيم على الدنيا ليل أبدي، ففكر في الخضرة المتلألئة بعد المطر .. فكر في انبعاث طفل!".

التفت إليها بعد أن انتهى من كلماته، رأى ملامح وجهها مضرجة بالانفعال، ودون أن تنظر إليه، وقفت، تأملت المدينة دقائق وكأنها تودعها .. ثم أعلنت بصوتها العميق "انتهى الصباح" وتركت المكان.

بعد ذلك اللقاء. لم يجرؤ على الاقتراب من السدرة. كان يكتفي بالتلويح لها كلما مّر بالتلة في طريقه إلى المدرسة.

في يوم لم ير المرأة . انتابه القلق. تسلق التلة وجلس في مكانها وكأنه بذلك يستنطق السدرة للإطمئنان على مريم.

بعد فترة سمع الخطوات البطيئة تقترب منه.

من دون أن يلتفت قال "قلقت عليك".

اقتربت وجلست إلى جانبه "يبدو أن ذاكرتي بدأت تضعف. في منتصف الطريق انتابني قلق من أني لم أقفل الباب خلفي ثم حسمت أمري وعدت إلى البيت".

- **"ووجدت الباب مقفلاً!".**
- **"كيف عرفت؟".**
- **"يحدث هذا لي دائماً".**

عادا ينظران صوب المدينة. بعد دقائق صمت سألته "ما التفصيل الذي يعجبك في المدينة من هذه التلة؟".

- **"لم أفكر بهذا .. يمكنك القول أن المدينة تبدو مختلفة من هنا، لا علاقة لها بتلك التي نسير في شوارعها ونتنفس هواء بناياتها وسمومها وضجيجها".**

لم تعلق.

سألها "وأنت؟"

- كنت أخالك تعرف، أقصد قد تكون سمعت بالشائعات التي تحوم حولي وبالتحديد تلك التي تقول أنني أنتظر القادم من جهة ...

قاطعها "أنت سألتيني وهذا يعطيني الحق في أن أسأل لأسمع منك كما سمعت مني".

- "المقبرة".

قالتها بصوتها الهادئ القاطع. انتظر أن تكمل وهو يتأمل وجهها لأول مرة. أوحت له ملامحها بحياة قاسية. ومع هذا لم تخف التجاعيد التي تسللت إلى عينيها من بريقهما.

بعد لحظة أدرك أن ذلك البريق لم يكن إلا بوادر دموع تقمع بشدة.

أمسكت رأسها بيديها. بدت وكأنها تعاني من ألم وهي تضغط بكفيها على رأسها بقوة.

- "هل تشعرين بشيء؟".
- "صداع شديد".
- "دعيني أساعدك".

أمسك بجبينها وبدأ يتلمس مواضع الألم. ضغط على صدغيها بعد دقائق قالت بوهن "أنا الآن أفضل. زال الألم".

عادا إلى صمتهما.

- ما حاجة الطفل إلى تابوت كبير؟

باغتته بالسؤال وهي تنظر إليه منتظرة إجابة.

ارتبك وهو يقول "التابوت من أجل الأحياء لا الأموات".

- "منذ اللحظة التي رأيت فيها إحدى طابوقات القبر منتزعة من مكانها والرغبة في تحطيم القبر والتسلل إلى التابوت الذي يتسع لكلينا لا تفارقني وهرباً من تلك الرغبة اكتفيت بمراقبة المقبرة من هذه التلة. منذ سنوات لم أذهب إلى هناك أخشى تلك اللحظة".

أمسك بيدها. كان الصداع والرغبة في التسلل إلى التابوت تنهك روحها. مع هذا كانت تشعر بأنها تحررت بصورة ما من عبء أثقل روحها لزمن طويل. منذ ذلك اليوم الذي ابتلعت الحرب فيه طفلها ابن السبع سنوات عندما سقط صاروخ على مدرسته.

ضغط على كفها وهو يقول بصوت ضعيف "تكلمي يا مريم .. لا تصمتي .. لا تخجلي من أحزانك .. كلانا وحيد بطريقة ما. الحرب أكلت حياتنا جميعاً. لست وحيدة بهذا".

كانت تحاول كتمان نشيجها وهي تتحدث " لم يحتمل زوجي حزني على طفلي الوحيد. فهجر البيت بعد عامين إلى بلد آخر حيث لا يسمع عن امرأة تقضي معظم وقتها عند قبر.

- "عندما عدت من الأسر بعد تسع سنوات، لم يتعرف عليّ أحد، كانت عائلتي قد تسلمت جثة في تابوت مقفل قيل لهم أنها لابنهم، فدفنوني / دفنوه. بعد سنوات تزوج أخي من زوجة الشهيد الذي هو أنا عندما عدت لم أجد مكان لي. فهجرت مدينتي كان ذلك منذ زمن بعيد. وفي كل مدينة كنت أحاول أن أجد قبراً يخصني، لكن هذا لم يحدث".

في ذلك اليوم لم تغادر مريم ومصطفى التلة بعد استيقاظ المدينة. جلسا يتحدثان ساعات طويلة. وعندما بدأت الشمس تنسحب من سطوح المدينة وشوارعها ووجوه ناسها قال لها وهما يغادران المكان "صباح غد نلتقي هنا لنذهب سوية إلى المقبرة لترميم القبر وسد الثغرة التي فيه".

طأطأت موافقة.

لمس ذقنها وهو يسأل بحنان "اتفقنا؟".

ابتسمت له.

في طريقه إلى البيت كان ابراهيم يسترجع لحظات الحزن التي جمعته بمريم .. حكايتها .. طفلها .. انتظارها .. وحدتها.

يعيد ترتيب تدفق الأحداث التي شكلت حياته .. سنوات أسره. عودته إلى مدينة لا قبر له فيها.

وبين ذكرى وأخرى كانت ابتسامة مريم تباغته لتصبح الفاصلة بين حزن وأخر أكبر.

في تلك الليلة. كانت ابتسامتها تغلف أحزانه وتجعلها شاحبة.

غفا وهو يردد لنفسه "بعد اليوم، لست بحاجة للبحث عن قبر يخصني".*

*** الكلمات لعمر الخيام**

ضفيرة بشريط أحمر

لم يكن باستطاعتي تذكر العام الذي اتخذت فيه حياتي مساراً أخر - لم أختره - لكني استسلمت إليه دون تذمر .. وبمرور الأيام أصبحت أحرص عليه كما لو كان خياري الذي ناضلت للوصول إليه.

لا أتذكر العام لكني أتذكر جيداً اللحظة بكل تفاصيلها .. بتاريخها الذي يتجاوز معنى الزمن .. اللحظة الذي استنفرت فيها النفس كل دفاعاتها من أجل تحنيط الزمن والعبور فوق جثته إلى زمن آخر تتشابه فيه السنوات والشهور والأيام والساعات واللحظات.

مرت فترة ليست بالقصيرة حتى اكتشفت ذلك. وعلى الأصح تنبهت إلى ذلك، بعد تكرر ملاحظات كانت تقال بصيغ وأساليب مختلفة أجمعت على أني لم أعد أنا !

في البدء كانت تلك الملاحظات تثير استغرابي وأحياناً غضبي . شيئاً فشيئاً لم أعد اكترث حتى بالتفكير بها. وفي النهاية نسيتها مثلما نساني من كان يكررها على مسامعي.

فانغمست في بئر الزمن المتشابه والنسيان: الاستيقاظ مبكراً. الاستماع إلى نشرة أنباء أعرف نوع الأخبار السيئة التي ستسكبها في مسامعي. ارتشاف كوب شاي. مراجعة النقاط الرئيسة لمحاضرات اليوم المدونة في دفتر الملاحظات.

قبل موعد الخروج بسبع دقائق أغسل وجهي وارتدي ملابسي أتفقد ملامح وجهي في مرآة قرب الباب قبل قفله خلفي.

أربعون دقيقه في الباص، تمر بسرعة. أمضيها مستمتعة بصمت الصباح والشوارع المتثائبة. أترك الباص قبل المحطة الأخيرة. السير خمس دقائق حتى الكلية.

تنتهي ساعات العمل. أمر على دائرة البريد، أفتح الصندوق لأقيس تراكم الغبار على آثار كف منسحبة من عمق الصندوق إلى خارجه. العودة إلى البيت. إعداد وجبة طعام لا أتم تناولها.

ارتشاف الشاي في السرير. محاولة القيلولة الفاشلة.

الاستحمام. إعداد كوب شاي آخر. التحديق بالسقف بين رشفة باردة وأخرى. المطالعة. العشاء المرتبك . إعداد دروس اليوم القادم . النوم.

بمرور الأيام لم أكن منغمسة في البئر حسب. كنت ملتصقة بقاعها أرفض الدلاء التي تمتد إليّ بين فترة وأخرى. أشيح عنها. أرفضها . وعندما تشخص أمامي بإصرار أقطع حبالها دون تردد لأقبع في مكاني بطمأنينة.

لم يكن هذا يحدث باستمرار . فلقد أحكمت بئري وسددت كل المنافذ المؤدية إليها خاصة بعد أن رحلت بها إلى بلاد آخر. غير أن بعض الأخطاء كانت تحدث أحياناً، عندما تتعثر أنظاري برسالة أفلتت من عود الثقاب .. بعلامة استفهام رسمت بالقلم الرصاص أمام جملة أو فقرة في كتاب لم تطلها الممحاة .. بصورة فوتوغرافية حافظت على وجوه أبطالها من التمزيق بالاختباء في كتاب أو في صندوق أوراق مهمل في مخزن البيت.

في تلك اللحظات كنت أذرف الدمع وأنا أحرق وأمحو وأمزق مرددة "لن أعود للألم من جديد" فترافقني الدموع إلى الوسادة حتى أغفو.

في الصباح أعود إلى بئري.

لكن وبالرغم من مهاراتي في الدفاع عن بئري إلا أنني لم استطع في ذلك اليوم أن أصد هجوماً غير متوقع، كان الصباح يوحي بيوم ممطر، حملت مظلتي وحقيبة أوراقي وخرجت من البيت.

كانت اللحظات الأولى كعهدي بها: الباص .. الصمت .. الشوارع المتثائبة ... كل شيء كان على حاله . فجأة شعرت بجسدي يقتلع عنوة من الكرسي مرتطماً بمسند الكرسي الذي أمامي.

كان السائق قد ضغط على الكابح بقوة عندما تسمر رجل، كان يقطع الشارع أمام السيارة.

وقف باصرار حتى بعد صرخة الكابح العنيفة لم يبد عليه الخوف أو التردد.

ظل واقفاً هكذا ينظر إلى زجاجة السيارة الأمامية.

ترك السائق المقود وأمسك بالرجل.

لم استطع تمييز ما كان يقال. كان السائق يتحدث وهو يمسك بساعد الرجل الذي استمر يحدق بصمت في السيارة.

عمت الفوضى السيارة. كان الجميع يتكلم بوقت واحد.

"إنه المجنون"

"ياله من صباح"

"كدنا نموت بسببه"

"كيف تترك الحكومة مثل هؤلاء الناس يتجولون بحرية في الشوارع؟"

"ما الذي أتى به إلى هذا الجزء من المدينة .. هذا ليس مكانه المفضل".

"لا يوجد مكان محدد له .. أراه يومياً في كل مكان".

"هل تعرف حكايته .. سمعتها مرة....."

"أنها السياسة"

"لا ... امرأة"

"لا السياسة ولا المرأة .. إنها ابنته"

كانت السيارة تضج باللغط والأحاديث، وكان نباح السيارات المحتشدة خلفنا بمثابة خلفية لفوضى الأصوات ونشازها وهي تجرح صمت الصباح".

بدا الرجل وكأنه ينظر بحزم إلى نقطة ما عبر زجاجة السيارة غير مبال بالسائق وهو يتكلم معه.

تتبعت خط نظرته. جفلت وأنا أشعر بها مسددة نحوي.

تلفت. حاولت إبعاد الارتباك الذي انتابني . الانشغال بالوجوه المنفعلة التي كسر ظهور الرجل المفاجئ كسلها وخدرها الصباحي، غير أن ذلك لم يجعلني إلاّ أن أشعر بنظراته أقوى.

"ماذا حدث لابنته؟ هل كانت كبيرة؟".

"لا .. طفلة في الخامسة من عمرها، كان يحتضنها أثناء سقوط صاروخ على حي سكني. عندما حضر رجال الإنقاذ، وجدوه مغمى عليه واشلاء الطفلة متناثرة في المكان، لم ينج أحد سواه من أفراد الأسرة"

شعرت بالأعياء والغثيان. كنت على وشك إفراغ ما في جوفي. أغمضت عيني وأنا أعب الهواء بعمق. أحسست بقاع بئري تهتز.

حاولت التفكير بمحاضرة الصباح .. النقاط الرئيسة التي ينبغي التركيز عليها. لم أنجح . كانت نظراته تدلو بدلوها في بئري.

فحسمت أمري على مغادرة السيارة.

ما إن فتحت عيني وتزحزحت عن مكاني استعداداً للنزول حتى وجدت السائق وراء المقعد بينما ساد السيارة صمت مفاجئ.

عاد كل شيء إلى مكانه. أثار استغرابي توقف الجميع عن الكلام بوقت واحد، دون تعليقات أو توجيه أسئلة للسائق.

أغمضت عيني من جديد. استمر ذلك دقائق قليلة.

سمعت غناء اخترق الصمت. كان صوتاً شجياً وكأن الوحدة والحزن قد أصابتاه بالتعب فأتى مشروخاً ممتلئاً بفجوات صمت.

"يا حلو الطول .. فراقكم طال"

مغمضة العينين كنت أود الصراخ "كفى .. لا أريد الاستماع"

كان الصوت معولاً يضرب بقوة دفاعاتي وباصرار يبحث عن المنافذ التي تم غلقها منذ سنوات.

"يا حلو الطول .. انتظارنا طال"

والعمر طال

لا أنت تجى

ولا العمر ينتهي

فراقكم طال .. فراقكم طال".

لم أجرؤ على فتح عيني. كان الصوت المتحشرج حزناً يشل تفكيري.

يمعن في نكأ جرح طالما أجبرت نفسي على رؤيته مندملا.

هطل المطر . خفضت السيارة من سرعتها.

توقف الصوت.

غادر الركاب. لم أنزل كعادتي كل يوم قبل المحطة الأخيرة . كان جسدي بحاجة للاستسلام للكراسي.

التفت إلى الخلف. كان يجلس بهدوء متأملاً الشوارع المبتلة بالمطر.

وجه نحيف أسمر .. أنف مستقيم. عينان واسعتان غائرتان. وجنتان بارزتان ولحيه طويلة كثة تخفي حقيقة عمره.

التفت إليّ فجأة وكأن نظراتي أقلقت تأمله.

لم أشح بأنظاري مثلما رغبت . لا أدري ما الذي جعلني أنظر إليه.

استمر ذلك ثوان ربما.

نكس رأسه وهو يقول "أنا آسف. لست سيئاً. لم أقصد الوقوف أمام السيارة".

كان الباص قد خلا من الركاب.

لم أجب استمررت في جلستي.

ردد "لم أكن أُقصد. رأيت وجهها أمامي فتوقفت".

أجبت بعد صمت "لا عليك"

واصل "كنت أمشي وفجأة رأيتها أمامي تناديني بابا. بابا".

تأوهت وأنا أخفض رأسي.

سألني بصوت خافت "هل تريدين رؤيتها".

"من؟".

تلفت وكأنه يتأكد من عدم وجود شخص آخر وهو يضع يده في جيب سترته الداخلي. بيده الأخرى أشار "تعالي هنا".

ارتبكت قليلاً. فكرت أن أطلب من السائق التوقف لكي أترك المكان لكن نظراته المتوسلة حسمت ترددي.

انتقلت إلى جانبه.

كانت يده في جيبه بينما واصلت نظراته مسح الباص الخالي.

بحذر أخرج كيساً ورقياً قديماً متآكلاً . وضعه في حضنه. نظر إليه لحظات قبل أن يفتحه . كانت أصابعه ترتجف وهو يخرج شيئاً لم أميزه للنظرة الأولى.

تساءل وهو ينظر إليه بإعجاب "أليست جميلة؟".

عاودت النظر كانت خصلات شعر أسود مضفورة بشريط أحمر

أكمل "إنها ضفيرتها .. حلوة .. أليس كذلك؟ كل يوم أراها تقف أمامي وهي تطلب ضفيرتها. لكن عندما أخرجها لها تغيب عني".

نظرت من جديد . رأيت ضفيرة الشعر الأسود الصغيرة ملتصقة بجدار كونكريتي مشبع بسخام الحرائق.

خرجت اللحظة من جسدها المحنط .. شمرت عن ساعديها وأخرجتني بقوة من أعماق البئر. ثم أمسكت بيدي وتجولت بي في أرجاء المكان.

رأيتني أسير وسط مجموعة من الصحفيين وكاميرات التلفزيون وجمع غفير من البشر يحملون شموعاً لا يقادها تحت صور صفت على جدران الملجأ.

كان المكان مظلماً، لم تستطع الفجوات التي صنعتها القنابل (الذكية) إنارة المكان.

لم تكن رائحة الأجساد المحترقة الممتزجة برائحة البارود قد غادرت المكان حتى بعد مرور عامين على تفجير الملجأ.

كانت الحشود قد أضاءت المكان بالشموع وتجمعت في الزوايا التي حصدت فيها الأرواح للاستماع إلى نصير شمة وهو يعزف "ملجأ العامرية"

كنت ما أزال أدور في المكان وشمعتي في يدي بحثاً عن وجه بلا شمعة.

عثرت على امرأة عجوز لم تصلها الذكرى. انحنيت واوقدت لها الشمعة.

أنار الضوء شرخاً في الجدار الكونكريتي تدلى منه شريط أحمر.
سحبت الشريط فانزلقت في يدي ضفيرة بشريط أحمر.

شعرت بكتفي يهتز .. رفعت رأسي. كان السائق يقف قربي بملامح حائرة . سألني "هل تشعرين بشيء؟".

نظرت إليه باندهاش " لا . لماذا؟".

- "وصلنا المحطة الأخيرة منذ فترة . ناديتك أكثر من مرة ولم تردي. منذ دقائق وأنا أكلمك لكنك كنت صامته تنظرين إلى الأمام".

اعتذرت من السائق "آسفة لقد سرح تفكيري قليلاً".

عاد السائق إلى مكانه وهو يردد بسخرية "ها ... قليلاً !".

شعرت بالخجل وأنا في طريقي إلى الباب. سألت السائق "أين نزل الرجل؟".

تساءل "أي رجل .. الباص كان ممتلئاً بالرجال؟".

- الرجل الذي كنت أجلس بجانبه.

حاول السائق أن يتذكر .. أسرعت لنجدته " قبل المحطة الأخيرة لم يتبق سوانا، هو وأنا. كنت أجلس في الأمام وهو في الخلف".

قال السائق بلا مبالاة "نعم .. كنت تجلسين في الأمام ثم غيرت مكانك قبل المحطة الأخيرة . لكن لم يكن غيرك في الباص ونحن نغادر المحطة قبل الأخيرة.

تمسكت بهدوئي وأنا أقول له "الرجل الذي كاد أن يتسبب لنا بحادث".

تغيرت ملامحه وهو يتحدث بامتعاض "ما هذا الفأل السيء. حادث لا سمح الله .. أي حادث يا أختي؟".

أفلتت مني الكلمات والجمل غير مترابطة "الرجل الذي وقف أمام السيارة فجأة و .... و أتتذكر عندما تحدثت إليه واقنعته و ....".

كانت ملامح السائق تشي بالشك والسخرية والغضب في آن واحد وهو يقاطعني "أنا .. حادث .. رجل .. ما هذا؟".

أوشكت على البكاء وأنا أكمل "الرجل الذي غنى يا حلو الطول".

ضحك وهو يتساءل مندهشاً "حادث .. رجل .. غناء".

حاولت أن أنهي الحوار وأترك السيارة إلاّ أن ملامحه الساخرة وضحكته المستهجنة الوقحة جعلتني اصرخ "ماذا حدث .. اليوم وقبل المطر .. الرجل .. ذلك المجنون".

ذهب السائق في ضحكته إلى أقصاها .. كاد يختنق بالكلمات وهو يضحك مردداً "حادث .. مجنون؟".

دمعت عيناه من الضحك وهو يتحدث إلى نفسه "إنه صباح المجانين".

وأنا خارج السيارة قررت عدم الذهاب إلى العمل. قضيت النهار أقطع الشوارع التي خلت من المارة. كانت الأمطار تهطل بغزارة. لم افتح مظلتي.

توقف المطر فعادت حركة الناس في الشوارع. كنت أمشي متفحصة الوجوه علّني أجد صاحب الضفيرة. سألت الشحاذين ورجال المرور في تقاطع الطرقات والساحات وزوايا الشوارع عن رجل تعرفه المدينة يتجول حاملاً في جيبه ضفيرة بشريط أحمر.

لم يعرفه أحد.

عدت إلى المنزل في آخر النهار. أسرعت إلى الفراش. كنت محمومة. لم أفق من وطأة المرض إلا بعد يومين. رأيته خلالها جالساً في الملجأ يعزف على العود اغنيته الحزينة وكان الحشد يرقص بجنون.

بدا وكأنه في غيبوبة وهو يغني ويعزف على العود.

لم يكن يعزف بريشه. كانت يده تمسك بضفيرة شعر أسود يعزف بها على العود، ومع حركة يده رفرف الشريط الأحمر.

عندما استعدت صحتي، اقتنعت بأن ما مررت به لا يتعدى نوبة حمّى قوية.

وفي الصباح الذي كنت أستعد فيه للذهاب إلى الكلية وبينما كنت أضع أوراقي في الحقيبة، تحسست يدي شيئاً غريباً يقبع بين الكتب والأوراق. قلبت محتويات الحقيبة- فرأيت ضفيرة شعر أسود بشريط أحمر!.

قــبر بلا تفاصيــل

- .. التقينا في مطعم يقبع في آخر طابق من بناية عالية جداً .. كانت صنعاء في متناول النظر من جوانب المطعم الزجاجية الثلاثة .. اختار طاولة في زاوية من المكان.

علقت قبل أن استقر في كرسي "جميل.. من هنا نستطيع رؤية المقبرة" ..

لم يكن تعليقي اعتراضا، ومع هذا كان حازماً وهو يطلب مني تغيير الطاولة انصعت إلى طلبه ضاحكة "ولكن ما الذي حدث؟ المكان لا بأس به"..

تمتم "لم يكن اختياراً موفقاً".

- لماذا؟
- اللقاء الأول قبالة مقبرة!،
- هل تخاف الموت؟.
- لا . لكن الفكرة مزعجة ..
- فكرة الموت؟.
- لا .. أقصد فكرة أن نلتقي أول مرة وأمامنا ..!
- مقبرة !
- ليس هذا حسب .. أقصد دعينا من المقابر والموت .. لنبدأ بالحديث بموضوع آخر.
- لك هذا .. غير أن الموت ليس مخيفاً بهذه الدرجة..

كانت أول مرة نلتقي فيها دون آخرين .. ورغم محاولاتنا للتكلم حول أشياء أخرى، كنا نجد أنفسنا نعود للتحدث حول المقابر .. الذين رحلوا .. طقوس الموت في العراق القديم وعلاقتها بمراسيم الحزن في حياتنا..

حدثته عن ذكرى قديمة .. عن الموت الذي يسكن في داخلنا .. عن الفرح المؤجل.. عن ضرورة التطامن مع الموت وعدم الخوف منه ..

كان يصغي إليّ بصمت .. وكنت أتحدث هاربة من نظراته إلى بيوت صنعاء القديمة .. الشوارع المكتظة بالمارة .. الشمس في لحظة ترددها في اتخاذ قرار - شعرت بقسوته - وهي تحاول الانسحاب بهدوء وبلا تعجل من سطوح المدينة وشوارعها وضجيجها إلى ما وراء الجبل ..

انتابني حزن مفاجئ وأنا أتذكر دقائق عشتها في الشتاء الماضي .. دقائق لا يمكن وصفها غير أني شعرت بها بعمق وهي تعاودني من جديد وأنا في مطعم أنيق يطل على صنعاء المحاطة بسلسلة من الجبال ..

كان ذلك في صبيحة أحد الأيام في قاعة الدرس .. كنت أحدث الطلبة حول علاقة الإعلان برغبات الإنسان وفجأة عبرت أنظاري النافذة واستقرت على مشهد الجبال المحيطة بصنعاء..

لا أدري كم استمر الأمر ؟ .. ربما لحظات لا غير، لكنها كانت طويلة، طويلة جداً .. وكأني صحوت من نومي لاجد نفسي في مكان وزمان لا امت لهما بصلة محاطة بوجوه ليست لأهل أو أحبة أو أصدقاء..

ما الذي أتى بي إلى هنا .. أين النهر .. النخيل؟

بدأت روحي تغوص بتساؤلات لم يوقفها سوى صوت أحد الطلبة وهو يتوجه إليّ بسؤال عادت إليّ تلك اللحظات وأنا أجلس إلى رجل أحدثه عن أشياء أصبحت ذكريات وأنظاري هاربة إلى سطوح بيوت وشمس تحاول الانسحاب خلف سلسلة جبلية.

سمعته يتساءل بتردد وحنان "لم تبكين .. أتراني أحزنتك؟.."

كانت دموعي، تسيل بهدوء ..

دون أن أنظر إليه مسحت دموعي وأنا أقول "لا.. ليس بكاء".

- ودموعك؟

- أعذرني .. أحياناً أصبح عاطفية وأذرف الدموع لمجرد رؤيتي كلباً يجلس باستكانة في ظل جدار وينظر إلى المارة بنظرات الكلاب الحزينة التي تعرف .. أقصد أحياناً أبكي دون سبب ..

- أرجوك .. انظري إليّ ..

كنت أشعر بعذابه لكني لم استطع إيقاف موجة الحزن التي انتابتني وشعوري بالحرج وأنا أذرف الدموع أمام رجل التقيه لأول مرة.

جاء النادل لتغيير المنفضة الكريستالية الممتلئة بأعقاب السجائر..

مازحته "أرجوك أحضر لنا منفضة ضفيرة الحجم كي استطيع سرقتها!.."

حدثته عن الإرباك الذي طالما كنت أسببه للندل وأنا أسأل بصوت عال الصديقات والأصدقاء في الكافتيريات والمطاعم التي ندخلها أول مرة عن الأشياء التي يمكن سرقتها من المكان استعراض طرق إخفاء المسروقات، وجوه الندل وهم يراقبونني، دهشتهم وأنا أترك المكان مودعة "في المرة القادمة سأسرق هذا الفنجان أو احتفظوا لي بهذه الزهرية لأني سأسرقها في الزيارة المقبلة.."

صمتنا لفترة .. ثم وكمن يراني لأول مرة .. نظر إليّ وهو يقول "يثير استغرابي استغراقك بالحزن واستغراقك بالمزاح.."..

أجبت بسرعة "الحزن خاص.. والفرح عام"..

في اللقاء الثاني كان المكان مكتظاً بالرواد .. لم نجد سوى تلك الطاولة المشرفة على مشهد المقبرة .. سحب لي كرسياً يطل على باحة المطعم ..

تجاهلت حركته وجلست قبالة الواجهة الزجاجية وأنا أقول "لا داعي لحمايتي من منظر المقبرة .. إنها تسكن في داخلنا"..

–أتدرين .. لقد دخلت هذه المقبرة أكثر من مرة وتجولت فيها .. الكلمات المنقوشة على الشواهد تثيرني .. قمت بتسجيل بعضها ..

- لطالما رغبت بدخول المقبرة لكني لم أجرؤ .. تخيل ما يمكن أن يسببه منظر امرأة غريبة تدخل لوحدها ..

- ما الذي يغريك بدخول المقابر؟

- السكون .. المكان الوحيد الذي لا يستهلك فيه الكلام أو الهواء .. لا شيء سوى الصمت حتى الريح تتردد خجولة في المكان وكأنها تسير على أطراف أصابعها .. .. كما أن فكرة دخولك مقبرة لا تزور فيها شخصاً محدداً .. أقصد شخصاً يخصك .. متحرراً من الأفكار التي قد يسببها وجوده .. ذكراك له تساعدك على الاستمتاع بالسكينة والصمت ..
- هل سبق وأن دخلت مقبرة لا قبر فيها يخصك؟
- أتتذكر مقبرة الأرمن .. تلك المقبرة الكبيرة الواقعة في نهاية شارع النضال.
- نعم؟
- كنت أمر بها عادة، وأنا في السيارة .. وكان منظرها من الخارج يلفت انتباهي ذلك الإنسجام والقدم في الطراز .. قبل خمسة أعوام وأثناء اضطراري لمراجعة وزارة التعليم العالي والبحث العلمي اكتشفت باباً جانبياً للمقبرة .. صادف ذلك أيام الصيف الحارة جداً ..

كنت كلما عدت من الوزارة يباغتني منظر الباب الموارب ذاك .. كنت أتوقف عنده دقائق طويلة .. أتدري ما الذي كان يأسرني؟.

- ماذا؟
- الممر المعتق بالظل والهدوء محاطاً بقبور صقل أحجارها الزمن والعزلة والعتمة كنت أشعر بهذا وأنا وسط لهيب الشمس وضجيج المنطقة المزدحمة بالسيارات والمارة والهواء المشبع بأصوات الباعة والغبار ومخلفات عوادم السيارات..

نعم الظل المعتق والهدوء ..

- هل دخلت؟.
- لا !!
- لماذا؟
- أتصدق إن أخبرتك بأني كنت أخشى نفسي، كان مروري عبر ذلك الباب الموارب يعني عدم خروجي من المكان.. كان نداء العتمة والصمت يجد

صدى في روحي وكنت أفضل أن يظل ذلك النداء رغبة تسكنني حتى اللحظة التي استطيع فيها اتخاذ القرار دون خوف أو تردد..

بعد اللقاء الثاني لم نتحدث عن المقابر والموتى .. الشواهد .. العتمة .. طقوس الموت في كربلاء والنجف .. كنا نقضي الوقت متحدثين عن المدن والكتب والطلبة والأصدقاء وأنواع النخيل .. عن دجلة والفرات ومذاق ماء كل منهما .. عن بيوت صنعاء وأهلها .. عن اللهجات. في يوم وأثناء عودتنا من بريد التحرير اكتشفنا أن الباصات التي تتوجه إلى حيث نسكن قد تم نقلها إلى مكان آخر لإصلاحات في الطرق وبدلاً من البحث عن مكانها قررنا العودة سيراً على الأقدام ..

كانت تلك المرة الأولى التي أسير فيها في تلك الشوارع..

كان الحديث حول موقف مضحك تعرض له وهو يلتقي بامرأة لا يعرف ملامحها جيداً والمفارقات التي أحاطت بذلك الموقف قد شغلتني عن تفحص الطريق ..

كنت مستغرقة بالضحك عندما وقعت أنظاري على بوابة المقبرة .. دون وعي صرخت بدهشة "أنظر .. المقبرة !!" ..

جاء صوتي الممتلئ دهشة عالياً وكأنه استمرار لاستغراقي في الضحك ..

نظر إليّ بصمت للحظة وهو يقول "من يسمعك تصرخين مندهشة يظن أنك تقولين: أنظر إنه البحر .. أو يالجمال تلك الحديقة!" ..

- الجمال في كل مكان حتى في المقابر ..

دخلنا المقبرة .. وكان منهمكاً بقراءة الشواهد وكنت منشغلة بتأمل النباتات والأصص التي غطت بعض القبور ..

في ذلك اليوم مارسنا لعبة التوقعات .. كان كل واحد منا يخمن هوية ساكن القبر: الجنس، العمر .. المنزلة. حاول مشاكستي وأنا أقول له بثقة "كل قبر مغطى بالزهور والنباتات فيه طرية متألقة هو قبر رجل أو طفل أو طفلة..

- لماذا؟

- وحدهن النساء يهتممن بمن يحببن حتى بعد موتهم.. القبر المعتنى به أما لزوج أو لأبن أو ابنه ..

أصر على مشاكستي: هذا الرأي ضد الرجال ..

- ليس الأمر كذلك، ولكن الرجل أكثر انسجاماً مع الحياة من المرأة، لنقل ربما أكثر واقعية ..

طوال الوقت كان يحاول إثبات خطأي لكنا وكلما توقفنا عند قبر مزدهر بالنباتات والعناية وجدنا الشاهدة تفصح عن هوية رجل أو طفل أو طفلة ..

وعندما كاد أن يسلم بهذا الرأي شاهدنا من بعيد رجلاً يحمل دلو ماء ويسقى نباتات على قبر..

انفرجت أساريره وهو يقول بانتصار "أترين .. أنت على خطأ أخيراً"..

ابتسمت وأنا أقول له "لا تستعجل .. سنرى عندما يغادر الرجل المكان"..

توقفنا عند شاهدة كبيرة فخمة لأحد ملوك اليمن ..

تساءلنا "ما الذي أتى به إلى هنا"..

كان الرجل قد غادر بدلوه الفارغ المكان .. أسرعنا إلى القبر قرأنا الشاهدة كانت لطفل في الخامسة من العمر ..

نظرت إليه مبتسمة: هل رأيت .. جاء هذا الرجل لقبر ابنه، ربما تحت إلحاح الزوجة وتهديدها له وقد يكون شاغل القبر أخاً لهذا الرجل وتحت وطأة دموع الام أتى لسقي النباتات .. أراهنك أنك حتى لو سكنت في هذه المقبرة لن ترى رجلاً يأتي للاهتمام بقبر أمه أو زوجته ..

سألني بحزن: أتراك ستأتين لزيارتي والاهتمام بزهور قبري؟ ..

- السؤال ينبغي أن يكون كالتالي "أتراك ستفعل هذا؟ أشم رائحة الموت قريبة مني .. أقصد لدي هذا الإحساس دائماً.. هذا لا يخيفني أبداً .. لا يحزنني .. الآن أقول لك: أتمنى أن لا تزور قبري .. أن يكون قبري مهجوراً .. منسياً .. وبشاهدة طينية حفر عليها اسمي واسم والدي فقط .. دون تفاصيل أخرى كالعمر والعائلة وتاريخ الميلاد والموت .. دون إشعار أو أية كتابات أخرى..

قبر عار تماماً .. بلا زخرف أو مواد بناء .. قبر طيني تفخره أشعة الشمس لا غير .. حيث سأعود إلى التراب مثلما أتيت. تماماً كذلك القبر الذي أمامنا .. ضغط على يدي بقوة وبصوت مختنق قال "أرجوك لا تتحدثي بهذه الطريقة .. دعينا نخرج من هذا المكان .. لكن عليك أن تعديني بشيء .. !!

- ماذا؟

-إذا مت فلا تحملي جثماني إلى العراق.. أريد أن أدفن هنا احتجاجاً على غربتي التي لم اخترها.

-لك هذا .. لكن عليك أن تعدني أنت الآخر بأن تحمل جثماني إلى كربلاء وأن يكون قبري مثل هذا القبر الذي أمامنا..

-أعدك ..

- إذن فلنتأمل هذا القبر لكي تفي بوعدك على أكمل وجه ..

اتجهنا إلى القبر المغرق بعزلته وبساطته .. كان صغيراً وواطئاً جداً .. غطته الأتربة المنقوعة بالأمطار فنبتت عليه بعض النباتات الصغيرة التي حملت بذورها الريح من النباتات المحيطة بالمكان .. قلت له: دعنا نقرأ شاهدة القبرة .. لا بد أنه لامرأة..

انحنينا لقراءة الشاهدة فجأة ساد الهدوء المكان .. حتى همس الريح توارى، كان الهواء مشبعاً بالسكينة، كنت أسمع دقات قلبينا ونحن نقرأ الاسم..

كانت الشاهدة بدون تفاصيل موت أو ميلاد أو اشعار .. لا شيء سوى عنوان من كلمتين: إرادة زيدان.

الفهرست

1- صـــور 4
2- Friendship 12
3- ربما الدموع .. ربما المطر 18
4- كــراسي 31
5- مشهد من تلة 40
6- ضفيرة بشريط أحمر 49
7-قبر بلا تفاصيل 58